

قصة حياة

تأليف

ابراهيم عبد القادر المازني

دار الشعب

اهداءات ٢٠٠٣

اسرة المرحوم الامتاع/محمد سعيد البصوي

الاسكندرية

قصة حياة

تأليف
ابراهيم عبد القادر المازني

دار الشعب

قصة حياة

هذه ليست قصة حياتي ، وإن كان فيها كثير
من حوادثها : والأولى أن تعد قصة حياة
إبراهيم عبد القادر المازني.

مقدمة

فتحت عيني أول ما فتحتها في حدثاتي على دنيا تنتزع الكرة من يد الطفل وتقول له : « أنتظن نفسك طفلاً ، له أن يلهو ، ومن حقه أن يرتع ويلعب ؟ لشد ما ركبك الوهم يا صاحبي ! لا كرة ولا لعب . وعليك أن تثب الآن وثباً من هذه الطفولة التي كان ظنك أن ترتع في ظلها إلى الكهولة دفعة واحدة ! حتى الشباب يجب أن تتخطاه وثباً أيضاً » .

وأنكفي إلى أمي أسألتها عن الكرة لماذا حرمتها دون غيري من لذاتي فلا تقول أنها آسفة ولا أنها ترثي لي ، أو أن قلبها يعصره الألم من أجلي ، بل تضع راحتها الرخصة على كتفي وتقول لي بصوت متزن : « اسمع يا ابني إنك لم تعد طفلاً ، وإنما أنت رجلنا الآن ، وسيد البيت ورأس الأسرة وكبيرها ! أي نعم . فقد ترك لنا أبوك مالا كان فوق الكفاية ولكن المال ذهب . ولم يق لنا شيء » .

فسألتها : « هل معنى هذا أننا سنجوع ونعري ؟ » :

فلم ترحمني . وقالت : « قد نجوع ونعري ! من يدري ؟ ولكن أملي في الله كبير . وعندي حلي ومتاع لا حاجة بي إليه . فسأبيع من هانا ونقنات وتكتسي . وستواصل التعلم — ما من هذا بد — حتى ينفد المال ، وينضب المورد . وعسى أن يكون بعد العريس . فما يثست من رحمة الله . ولكنني لا أرى أن نعتد على غير ما بأيدينا ، وهو قليل فاعرف هذا ، روض نفسك على السكون إليه والنزول إلى حكمه » .

قلت : « ولا اللعب ؟ » .

قالت : « بلى ، ولكن بغير كرة نضيع فيها مالابنا حاجة إاليه لقوتنا . إن الكرة تشجع على الركض ، وتغرى بالنط . فاركض بدونها ، ونط بغيرها وسترى أنك لن تخسر شيئاً » .

فمرت أركض لأن هذا واجبي ، وما تطلبه الحيوية التي لا تزال مقصورة على أعضائي . على حين كان يركض غيرة، للهو والتسلية .

فعرفت في التاسعة من عمري - وهي سن غضة جداً - أن هناك واجبات تؤدي لذاتها ، وحقناً تقضي لأنها حقوق ، لا لأن فيها متعة ولذة : وأحسست من صغري أن شأني غير شأن الناس ، وإني فقير وأن كنت مستور الحال . ولكن السر لا ينفي الشعور بالفقر وغمضاضة ومضضه . فأرهدف ذلك إحساسي ، حتى صار ينحني بمثل حد المبرة على قلبي فيحزه ويقطعه . فترعت شيئاً فشيئاً إلى الإنقباض عن الناس ، واتقاء الخرض معهم فيما يخوضون ، مما يستدعي نفقة وتكون فيه كلفة .

وقوى هذا الميل في نفسي وعمقه أني بعد الذي سمعته ووعيته من أمي . قصدت إلى أخي الأكبر - وهو من غير أمي - وسألته عن مال أينا أين وكيف ذهب ؟ فقال وهو يكاد يشرق بدمعه ، وأنا أنظر إليه جامد العين أنه هو الذي أضاعه ، وجر علينا هذه المحنة ، ولكنه يرجو أن يعوضنا خيراً مما أكلت . فأحسست أني شبيت جداً عن الطفولة في تلك اللحظة !

وانصرفت وأنا أتساءل « أليس لكل امرئ حقه ؟ فكيف يتسنى لواحد أن يجني على جماعة ! وكيف ولماذا يجد الوسيلة إلى ذلك » ..

وصرت أنحاف الناس وأنظر إليهم شذراً . وإذا كان الأخ يجني على إخوته وأمههم وجدتهم ، فما ظنك بالغريب الذي لا تصلك به رحم ، ولا تعطفه عليك عاطفة من قرابة أو نسب .. ؟ » .

وأقبل علينا قريب لنا يقول إن في وسعه أن يرفع عن كاهلنا عبء

نفقات التعليم ولكن « الواسطة » يطمع في جزاء أو « رشوة » فأبت أمي كل الإلاء . فما زال بها حتى ملت إلحاحه ، فدفعت إليه ما يطالب . وغاب شهور الصيف . ثم جاءنا يقول إن الوزارة أعفني من نصف نفقات التعليم ، فقلنا شيء خير من لا شيء . ولكنه كان كاذباً . وتبيننا أنه لم يرش أحداً ، وإنما استحل أن يسرق مالنا نحن الفقراء بهذه الخدعة .

فزاد سوء ظني بالناس ، وانزويت عنهم ، وأقبلت على دروسي لأفرغ من التحصيل بأسرع ما استطاع ، فيتسنى لي بعد ذلك أن أكسب رزقي ، وأنقل نفسي وأهلي من هذه الفاقة التي منينا بها لغير ذنب جتيناها .

وترك هذا كله أثره في نفسي ، فاجتنبت أن أعاشر إلا الذين أرى حالهم يشبه حالي أو يقاربه ، وصرت أشعر أتي غريب إذا ألفت بي المصادفات بين قوم من السراة أو الأثرياء أو المتظاهرين بالغنى ، كأنهم ناس من شاكلة أخرى ، وخلق مختلف . فكنت أنفر أشد النفور من مجالستهم أو مخالطتهم . ويكبر في وهمي أنهم لا يخفى عليهم أتي نشأت فقيراً . وإني امتحنت في صباى أقدس امتحان ، وأن ما أراه من مظاهر غناهم ليس إلا مخيلة مقصودة يشقون لي بها جفوني ويطلعوني على ما بيني وبينهم من بون .

وكنت قد كبرت وأصبحت معلماً ، وعندى فوق الكفية من الرزق فأشفقت أن يرثني هذا عنده نفسية أو « مركب نقص » كما يسمى . فعابلت ذلك بالتمرد ، ورحت أعد الذين نشأوا في حجر النعمة وظل اليسار ، من المنبوذين ، لأنهم متكلفون غير خالصين لأنفسهم ولآدميتهم ، ولأنهم مترفون ، متطرون خرعون ، لا يعرفون شرف الكد ، ولا يدركون مزية الكدح والسعي ، وإنما يعيشون عيشة الفضول والتفليل ، ولا يحسون حياة صحيحة ، ملأى بحركة الشعور والعقل ، فلا احتفال بهم ولا اكتراث لهم ، وأنا وأمثالي أحق منهم بالكرامة وأولى باستيجاب التعظيم .

وارتفعت بها السن شيئاً فشيئاً ، وزادت التجربة ، ورحب الأفق على الأيام . فأدركت أنى أسرفت على نفسي وعلى الناس . ونيت أن لا داعى للمرارة ، فقد أفادتني المحنة صلابة وعزماً وثقة بالنفس وجراً على الحياة والمغامرة فيها ، ولو كنت نشأت في نعمة صابغة لكنت حرياً أن يفسلني التذليل ، ولا ذنب للناس جميعاً فيما كان من أحدهم أو بعضهم وفي الدنيا الصالح والطالح ، ومن الظلم أن ييؤ البريء بإثم المذنب ، وأن تؤخذ الجماعة بجريرة واحد ، وكل امرئ يزل ، والعصمة لم يوثقها لإنسان وحتى ما جنى أخى قمن بالغفران . فما هو في ذاته باللى توصله دون أبواب العفر ، وما عدا المسكين أنه طاش طيشة كان من الجائر أن أطيشها لو كنت مكانه وكان حبل على غاربى كما كان على غاربه ، وما أعرفه أفاد إلا متعة قصيرة وحسرة طويلة على ما ضيع ، وما أهداه إلينا من الكرب الجسام ، فهو جذير بالرائاء والرحمة والنقمة . وما شهدت النعمة التى تقلب فيها زماً وجيزاً ، ولكنى شهدت الندامة التى ظلت تأكل قلبه بقية حياته ، وكنت على الرغم مما أساء أوقره وأنزله منزلة الوالد لأنه أسن منى ، ولكنه هو كان أشد توقيراً لى منى له ، وأعظم بى تحفياً . ولما نشرت أول كتاب لى - وكان ديوان شعر - حملت إليه أول نسخة منه أخرجتها المطبعة ، فتناولها معجبا ، وقلبها جدلاً ، وشرع يقرأ ، فأراعنى إلا دمه المهمر ، من فرط الحنو والزهو . فهضت إلى زوجته وتشاغل بالحديث معها ، فما أطبق البكاء ، ولا أعرفه ، وإنى لأدرى أن الدمع رحمة وأنه كما يقول ابن الرومى :

لم يخلق الدمع لأمريء عبثاً الله أدرى بلوعة الحزن

ولكن قسوة الكفاح ومرارة الصبر على طول الحرمان ، جففتنا عبراتى وعلمتنى أن أبكى بقلبي دون عيني ، وأن أسترضعفى عن الناس ، فلا أبلو لهم إلا بصفحة وجه يقرأون فيها آيات الرضى والاستبشار والثقة .

والفضل في ذلك لأني ، فقد جثتها يوما أبكى لأن غلاما ضربني فأوجعني ،
 فظننت إلى باسمه ، ولم تربت على كتفي ، ولم تكفكف دمعي ، ولا واستني
 وإنما قالت لي : « رجلنا يبكي » ؟ فإذا عسانا نصنع نحن النساء الضعيفات ؟
 فخجلت ، ولم أكن خبرتها الخبر . فقلت - كأنما كنت فعلت - « ولكنه
 أكبر مني » قالت لاشك ، ولكن حيلتك ينبغي إذن أن تكون أوسع ، فما
 غلبني بعد ذلك اليوم غلام أسن أو أكبر جسما ، حتى خافني صبابة الحارة
 وحرصوا على اتقاء شري .

والعبرة بالخواتيم - وقد انتقلت في الحال بعد طول الضنك إلى سعة
 مرضية وخير كثير فالحمد لله على ما أنعم ويسر .

ورضيت عن الدنيا وانشرح صدرى للحياة ووجدت أن التسامح الذي
 مبعثه الفهم وصحة الإدراك أجلب لسرور القلب وطمأنينة الخاطر ، وسكينة
 النفس ، من تلك الماراة القديمة التي كان ينضح بها الوجه ويقطر اللسان .
 وألفيتني أغتبط بأن أتمس ما يروق ويسر من جوانب الحياة ، وأن أبرز
 هذه الجوانب الوضيئة للناس وأشركهم معي في نعيمها ، وأحاول أن
 أفتح لهم كوى تدخل منها الشمس فتضيء لهم وجوه العيش وتمنحهم
 الدفء ، وتشيع الابتسام والجلل في وجوههم وقلوبهم ، وأن أقطف لهم
 من أزهار الحياة ريحانا وآسا ونرجسا ، وأن أجمل ما كان يبدو لي ولهم
 حميما ، وأزين العاطل ، وأرقق الماء في حواشي النسيم ليعود أندي على
 القلب وأثلج الصدر .

وتوسعت في هذا وتعمقت . فقلت : إني مثل الناس غيري ومنهم ،
 وكلنا مجبول من طين واحد ، ولست خلقا قائما بذاته ؛ أو بدعا في هذه
 الدنيا ، ومن الممكن أن أعرف الناس معرفتهم إذا أنا وسعني أن أعرف
 نفسي ، فصار دأبي بعد هذا أن أخلو بنفسي ، وأحاسيسها ، وأراجيعها ،
 وأغوص في أعماقها على بواعثها ، وعلى ما تغري بها غرائزها المهذبة

أو الساذجة ، وأن أقف على دواعي ضعفها ونقصها ، وأسباب قوتها ، وجعلت كدى كلما بدا لى ما يسوء ، أو يريب أو يسخط ، من أحد أن أحاول أن أضع نفسى فى مكانه ، وأن أنظر ماذا كنت خليقا أن أصنع لو أنى كنت محله ، وكان يحيط بى ما يحيط به ، وكان لى مثل حظه الكثير أو القليل من العلم والتجربة ، فأصبحت فيما أعتقد - غير مغرور أو مخلوع فيما أرجو - أعدل وزنا وأكثر إنصافا ، وأسرع إلى تهديد الغدر منى إلى سوء الرأى .

وليس معنى هذا أنى الآن أرى أن الدنيا وأحوالها على خير ما يمكن أن تكون ، أو أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، أو ما هو كائن . كلا . ولكنى أرى أن معالجة الأسواء والفساد بحسن الإدراك ، وصحة الفهم ، والرفق والحسنى ، أجدى وأرشد . وماذا يفيد تعذيب النفس بالتسخط وتلهب الغضب واحتدام النقرة ؟ . إن الذى له قيمة هو أن ندرك أن هناك ما يستوجب الإصلاح والتقويم ، وأن نهتدى إلى وسيلة الإصلاح ومداه وليست ثورة النفس بالنى تعين على هذا وتيسره ، فإنها خليقة أن تورثنا اضطرابا فى التفكير ، وأن تجمع بنا إلى غير ما يشير به العقل ، وتصفه الحكمة . وإنما الذى يعين على الصلاح والخير ، والتفكير الهادى والتدبير الرصين ، وقياس مبلغ القدرة إلى الأمل ، وأصالة الرأى ، والخلق فى التدبير ، ولا سبيل إلى شىء من هذا إذا احتاجت النفس ، وقامت قيامتها واثارت كالألجة المربدة .

ولماذا أكتب كل هذا ؟ ما صلته بموضوع الكتاب ؟ لا أدرى ! سوى أنى لطول اعتبارى أن أتدبر نفسى وأدير عيى فى جوابها ، أصبحت أعتقد أنى أستطيع أن أعرف الناس بنفوسهم إذا وسعنى أن أكشف لهم عن عيونهم صورة صافية - لا مزورة ولا موهمة - من هذا الإنسان الذى هو أنا ، والذى هو أيضاً كل امرئ غيرى . وليس هذا بالمطلب الهين ، وما كان مثاله قط ، ولن يكون دانيا . غير أن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله ، وعلى المرء

أن يسعى جهده وعلى الله التوفيق ، وإن طاقة الإنسان محدودة ولكنه ليس عاجزاً كآل العجز ، ولو أن آكل إنسان أخاص وصدقت سريرته وبذل ما يدخل في وسعه ، لعادت الحياة أطيب وأبعث على الرضى .

وأحسب أن من بواعثي على هذا الاستطراد ، أنى أقول لنفسي إذا أنا لم أنفع بتجربتي وفهمي هذا الجيل الذى يفقد الخطى وراء جبلى ، فإخبر أنى كنت وعشت ، وفهمت أشياء وجربت أموراً ، وألمت الحقائق ؟ إن من الأم الآثم أن تبخل بعلمك على غيرك . وقد يعذر الذى يرضن بالرغيف وهو جائع ، على رفيقه ، وفى الطباع الإنسانية أن يؤثر المرء نفسه ، فى خصاصته ، على غيره وقد يبلغ المرء من الحرص على الذات فى المحنة أن يخطف اللقمة من فم ابنه وهو ضئوه وفلذة كبده لأن النصور وخوف التلف الوحى يثيران غريزة حفظ الذات فيبدل الإنسان عن واجب المروءة ، وواجب الأبوة ، ولكن المعرفة ليست مادة يحفظ بها البدن من الوبال ، وهى لا تنقص بالشيوع والاستفاضة ونصيبك منها لا يقل إذا بلغ فيها غيرك مبلغك ، وفى وسعك أن تهذى منها ولا تخش عليها النقص ، ومن المحقق أنك أخرى أن تكون أسعد إذا صار الناس أعلم وأفطن وأوسع مدارك والطف حسا .

فالضن بالمعرفة ضيق عتل وسوء رأى ، ولو لم نفس وخسة طباع — بلا مسوغ ما ، ولا فائدة ما — لأن الناس يصلون إلى المعرفة أردت و ألم ترد ، وبمعونتك أو بغيرها . فما أنت فى الدنيا بالوحيد الذى ينظر فيجد ، ويبحث فيتهدى ، ويعالج فوفق .

وأمر آخر أردته ، وأظنه مما ساقى فاستطردت . ذاك أن الناس أشباه متماثلون وإن تفاوتت بهم الأموال ، وليس اختلاف النشأة بمانع أن تكون التجربة من معدن واحد ، وإن كان المظهر يوقع فى الروع لأول وهلة أن الخبر شئ آخر .

- ١ -

تلك كانت حياتى - فقد نشأت فى بيت صارم التقاليد فى ساحته الواسعة مصلى ومبضاة ، وعلى جانبيه مدخله غرف لإقامة الأتباع والتلاميذ والمريدى ، وكانت آخر هذه الحجرات ، مما يلى الساحة مباشرة - غير مسقوفة ، وكانت تتخذ اصطبلًا لمن له بغلة أو فرس أو حمار ، وبعد المغرب من كل خميس يجتمع المفرقون من هؤلاء الأتباع فى المصلى ، ويتلون « الورد » وهم قعود ثم يذكرون الله ، ثم يقومون إلى صلاة العشاء ، ثم إلى الطعام فالخلوة ، وفى الفجر يخرجون إلى مقبرة الشيخ الكبير .. وهناك يتلى « الورد » مرة أخرى ، وتتعقد حلقة الذكر .. ثم يؤكل « القول النابت » والخبز .

وكان يروقى هذا ويستولى على خيالى ، فأشاركهم فيه ، وأبلى الورد الذى يتلونه ، وأصلى على النبی كما أراهم يصلون ، وأهز رأسى وجسدى فى الصف عند « الذكر » كما يفعلون ، وأحاول - عبثا - أن أجعل صوتى غليظاً عميقاً ، وأرافقهم فى الفجر إلى المقبرة ، وأزيد عليهم فأعرج على قبر أبى فأزوره ثم أرتد إلى الحارة واللعب ، والقلب راض والنفس ساكنة .

ولم يكن هذا بيت أبى ، وإنما كان بيتا يسع من شاء من الأسرة أن يذهب إليه ويقيم فيه ، فقد كان واسعاً كبيراً ، فلما مات أبى وساءت حالنا بعده ، اتخذنا لنا فيه شقة اقتصادا فى النفقة ، وعز على ذلك فى أول الأمر فقد كان لنا بيت خاص لا يشاركنا فيه مشارك ، وكان عندنا الخادم والخادمة والبواب والبستاني ، ومن العجيب أنى أذكر مدخل البيت وساحته الرحبية وحديقته والنافورة والحجرات من حول ذلك ، وفيها مكتب

أبى ومكاتب الوكيل ومساعديه ولكن ماعدا ذلك بهتت صوره ، وأذكر
 أنى كنت أدخل على أبى فى مكتبه وعنده أصحاب القضايا ، فأقف إلى
 جانبه وهو مكب على الورق ، وأنا ساكت لا أقول شيئاً ولا أتحرك ، حتى
 يرفع رأسه ويمد يده إلى فنجان القهوة ، فأقول بصوت خفيض « أبويا .
 أبويا . أبويا هات قرش .. » فيضع يده فى جيبه ثم يخرجها بما تخرج
 به - بقرش أو نصف فرنك ، أو أقل أو أكثر - فأتسلل بما أعطيته ،
 فألقى أخى الأصغر ينتظرني عند الباب ، فنخرج إلى الحارة حيث نجد
 بائع الدندمة .. فن دفع إليه مامعنا ، ونأكل حتى نشبع ونحمد الله ، أو
 لانحمده فنمبل على دكان مجاورة لبيتنا فنشترى كرات ولبيا وما إلى
 ذلك - نبدد الفلوس والسلام وكان أخى أصغر منى وكان جميلاً مشرق
 اللباجة سميناً وبضاً غضاً ، فكان أبى يخاف عليه أن تصيبه العين ، ومن
 هنا أمر ألا يدخلوه عليه فى المكتب لئلا يراه ذو عين فيحسده فاتفق يوماً
 أنى كنت عند عمى ، فلما مر « بائع الدندمة » أقبل عليه الغلام
 بالطلب كالعادة ، فناوله من مثلجائه ، ولم يجد أخى معه ثمن ما أكل ،
 فخلع طربوشه . وعرض على الرجل أن يقبله بديلاً من الثمن وكان أخى
 ولا يزال عظيم الرأس ، فطربوشه يصلح للكبار ، فضى الرجل به ولم
 يعد بعدها لسوء حظه .

ومن الصور التى لا تزال ماثلة أمام عيني ، أن جدى دخل على أبى
 فى مكتبه يتوكأ على عكازه ، فنهض له أبى واقفاً وأفسح الزباين له
 ليقعد ولكنه لم يفعل والتفت إلى أبى وطلب منه شيئاً ، فاستمهلته هنا
 فما كان من الجدل إلا أن رفع « العكاز » وأهوى به على كفف أبى ، فتأوه
 واختبأ تحت المكتب ، وانصرف جدى غاضباً ساخطاً يلعن العقوق ،
 وعاد إلى كرسيه فى مدخل البيت .

وكننت أنا حاضراً هذا الذى حدث ، فشق على أن أرى جدى يضرب

أبى بهذه المراوة الضخمة ، فخرجت إليه فنادانى وأدنانى منه وأجلسنى على حجره وشرع يلاطفنى ويدعوى لى ، ولكنى كنت مغیظاً محققاً فتناولت شعرات من لحيته الكثة وشددتها وفى نيتى أن أنتفها كلها عقاباً له ، فزجرنى وأدار وجهه ورفع يده له لتخليص لحيته ، فبدأ لى قذاله فصفعته فطار عقله ودفعنى فارتيمت على الأرض ورأيتة يميل على هراوته ويتناولها فوضعت ذيلى بين أسنانى وانطلقت أعدو .

وقد ظل جدى شهراً يأبى أن يكلمنى أو ينظر لى ، وأنا أكاد أجنى من ثقل الشعور بالحرمان من عطفه ، فلما فاءت نفسه لى الرضى كتب لى حجاباً وجلده — حفزاً له من التلف — وعلقه على جنبى الأيسر ليقبى الله سوء الأدب ، إذا كان قد وقع فى روعه ووقرفى نفسه أن الناس حسدوفى فكان منى هذا اللى أسخطه على .

وكان شر ما يمكن أن يعاب به الواحد منا نحن الصبيان ، أن يراه أحد واقفاً يحدث بنتاً أو يلاعبها . يا حفيظ ! ولد يلعب مع بنت . . . هذا إثم كبير ومعصية توصل من دونها أبواب الغفران ، فإنه عيب وسوء أدب وقلة حياء وفساد تربية وأشنع من هذا وأبلغ فى العيب وسوء الأدب أن تلعب البنت فى الشارع أو فى ساحة البيت ألا تكفيها حجرات البيت التى تطل نوافلها على الطريق وعلى فناء الدار . . . وصحيح أن الشبايلك مسمرة ؛ ولكن النظر من الثقوب ميسور وهذا يكفى ؛ بل كان من العيب أن يرى الرجل زوجة أخيه إذا كانت غريبة أو من غير قريباته .

وتغرب الشمس فيجئنا الخادم من الشارع ، ويهش علينا كما يهش على الغم أو اللجاج ، ويردنا لى البيت والحجرات ذات الشبايلك المسمرة مخافة أن يحطفنا أحد إذا بقينا نلعب فى الحارة ؛ أو يصادفنا « السماوى » فييتنا ، أو يظهر لنا عفریت فيركبنا أو برعبنا أو يفعل بنا غير ذلك مما تفعل العفاريت ، ويكون الحر شديداً والليل جميل وترهق أرواحنا فى الغرف

المكتومة ونشهى أن ننعم بالليل والسماء الحافلة بالنجوم الخفاقة اللعنان ،
ولكن لا سبيل إلى ذلك .

وكانت بنت خادمتنا في مثل منى ، فكنت أتوق إلى ملاعبتها بعد إذ
نهش إلى الغرف في الليل فتأبى أى وأمها ذلك علينا وتصرفاتنا عنه لأنه عيب ،
وتجر الخادمة بنتها إلى حجرتها — تجرها من أذنها وتشد عليها وتقرصها
وقد تضربها علقه ، وتجرنى أى من يدي أو من شعري إذا حزنت ، أو تحملى
وأنا أضرب بيدي ورجلي في الهواء وأصرخ وأصيح وترقلى برغم أننى على
السريـر وتغطى بالاحاف وتروح تحدثنى عن العناريت وتصـف لى ما تصنع
بالأطفال الذين « لا يسمعون الكلام » ولا يفعلون ما يؤمرون ، وتروى لى
قصصاً يقف لها شعر الرأس ويتقبض الجلد عن « المريـرة المرتزرة » و « أبى
رجل مسلوخة » وغيرهما وغيرهما وأنضاعل ويدخل بعضى فى بعض ، وتهم
بأن تركنى وقد اطمأنت إلى سكونى ووئقت أنى غير مفارق فراشى فى ليلتى
تلك ، فأصبح بها وأناديها وأدعوها أن تبقى إلى جانبي لأن « اللحاف » يحـدق
فى بعينين تقدحان شرراً ، أو لأن دهان الحائط يبدو لى عليه رسم يشبه
ما سمعت من أوصاف أبى رجل مسلوخة فأنا أخاف أن يتجسد ويخرج من
الجدار ويمبل على بأسنانه وأظافره .

وبعد لأى يغلبنى العاس فأنام وأنا أحلم بالعفاريت والإسـاخـ والليل المخوف
والنهار الذى يعيد الطمأنينة ، والسلام المظلمة وما يخـبى لى عندها ، ولم تكن
أحلاى تخلو من متع منغصة ، وما أكثر ما رأيت فى منامى أنى لاعبت هذه أو
تلك من البنات وأن أهلى دهنونى بالسمن والعسل وقيدونى ورمونى فى ركن
حالك السواد وتركونى للحشرات وغيرها من المؤذيات والمرعبات . :

ويصبح الصباح فأحمل إلى « الكتاب » حملا ، وهناك توضع قدمائى فى
« الفلقة » ويهوى عليها « سيدنا » — فقيه الكتاب — « بالخريدة » أو « المقرعة »
أو بكل ذلك إلى مساعده « العريف » وبهكذا يبدأ النهار .

- ٢ -

لم يطل مكثي في «الكتاب» لأن أمي أصرت على المدرسة . وكان أبي مشغولاً عنا بزوجة جديدة وكان عمله يضطره إلى السفر إلى «استنبول» فكان يقضي هناك ماشاء الله أن يقضى - شهوراً أو عاماً أو قرابة ذلك - ثم يعود ومعه زوجة . وأحسبه كان يضطر إلى الزواج انقضاء من الإثم . ولكن الغريب أنه كان إذا احتاج إلى السفر مرة أخرى ، يحمل معه الزوجة ويسرحها هناك ويجيء بغيرها وأظنه كان يحب التكريات ويؤثرهن على سواهن ، وعسى أن يكون قد راقه منهن بياضهن وحسن التدبير والنظافة والطاعة والأدب ، فإن يكن ذلك فما ورث عنه إلا تقيضه ، ولست أعنى - كما لا أحتاج أن أقول - أني أحب الوساخة وسوء التدبير وقلة الأدب والعباد بالله ، وإنما أعنى أن اللون الأسمر آثر عندي وأحب لي ، وأنه إذا اجتمعت اثنتان واحدة بيضاء والأخرى سمراء ، وكانتا من الحسن في منزلة واحدة ، فالسمراء عندي أجمل وأندى على القلب ، وعسى أن يكون هذا من التعصب لأمي ولنفسى ، فإني أسمر - أو إلى السمرة أقرب - ولعل أكره أن تزهى على واحدة بياض جلدها ، ولكن هذا شطط فلا أرجع إلى ما كنت فيه :

ولم تكن الزوجة الجديدة من استنبول وإن كانت تركية ، وكان لها ولد من زوج سابق ترك على أرنية أنفها آثار أسنانه ، ذلك أنه عض أنفها في ساعة من ساعات الغضب أو الجنون ، وكانت أسنانه نضيدة فتركت حزراً واضحاً . ولبعض الناس ولع بالأنوف في ساعة الغضب ، فقد كان لي قريب يتناول أنف زوجته إذا ساء منها فعل أو قول ويهزه يمينه ويسرة فيدور رأس المسكينة ، وتتساقط دموعها :

ولم يهجر أبي (البيت الكبير) في سبيل هذه الزوجة الجميلة - فقد كانت جميلة والشهادة لله ، وكان الرجل معزوراً - ولكنه كان يقضى عندنا ليلة ، وعند هذه الزوجة ليلة ، فأما ليلته في البيت الكبير فكان يقضيها مطرقا يسمع التفرغ والتأنيب من جدى تارة ، ومن أمى تارة أخرى ، وكان عظيم الحلم ، طويل البال قليل الكلام ، فكان لا يزيد على الابتسام ، وهذا ما خالفته فيه أيضاً ، فإني أحقق طياش سريع الغضب حاد الطبع وثرثار لا يفرغ الناس من هذره ، ومن الإنصاف لأبي أن أقول إنه ما بين شغله بزوجته الجميلة وما يكابده في البيت الكبير فضلاً عن عمله المصنئ ، لم يبق له وقت يعنى فيه بنا نحن بنيه الصغار ، وكان لنا أخ كبير غير شقيق أذاق أبانا الأمرين وأراه النجوم في الشهر الأحمر ، ومن حوادثه التي تروى أنه كان يصلى الفجر في مسجد الحسين ، فخرج مرة إلى صلاة الفجر على عادته فألقى باب المئذنة مفتوحاً ، وكان المؤذن شيخاً هرمًا ضخماً الجسم ، كالقمل الصغير ، وكان أعشى ، فخطر لأخى أن يعابه فصعد على أطراف أصابعه ووقف وراء المؤذن المسكين الذي لا يدرى أن وراءه هذا الشيطان ، وأنه ليرفع الصوت بالآذان ويصيح في سكون الليل (حتى على الصلاة) وإذا بصوت من ورائه يرتفع فجأة ويصيح متمماً (حتى على الفلاح) فريع الرجل وله العذر ، وكان ضحاً كما قلت ، وعلى صدره قنطار من الشحم ، وكانت صلصة المفاجأة عنيفة فسقط مغشياً عليه وميتاً على قول ، ولم يضطرب الأخ المحترم بل أتم الآذان وانحدر إلى المسجد للصلاة ثم احتال فأغرى خدام المسجد بالبحث عن المؤذن المسكين وانصرف هو إلى بيته قرير العين راضياً عن نفسه ونام نوم الصالحين .

وكان أبي في وقت من الأوقات مدرساً للغة العربية في المدرسة الخديوية فألقى بها ابنه ليكون تحت عينيه ، فكان هذا الابن البار هو

الذى زهد أبى فى التعليم فنفض يده منه واشتغل بغيره ، ولم يطل بقاء
أخى فى هذه المدرسة فقد طردوه فأدخله أبوه مدرسة صناعية ، أو زراعية
لا أذكر وكان يبيت فيها فصار يجرى الطلبة زملاءه بالخروج فى فحمة
الليل ، وكان يربط البطاطين بعضها ببعض ، ويدليها من النافذة ويتخذ
منها هو وزملاؤه حبلا يتعلقون به ، ويتدلون وبه يصعدون أيضاً حين
يعودون مع « الديكة » وظهر الأمر فاشتجر أخى مع ضابط المدرسة ،
وتماسكا وتضارباً فانكسرت رل الضابط ولا آخر لحوادث هذا الأخ
وقد ظل إلى آخر لحظة من حياته مولعاً بالعبث .

وكنى فى السادسة أو حوالى ذلك لما أخرجتنى أمى من « الكتاب »
وبعثت بى إلى مدرسة عجيبة الحال ، تمهيداً لإدخال مدرسة حكومية ،
ذلك أنها كانت مدرسة بنات ، ولكن فيها « فصلاً » واحداً للصبيان ،
وكانت صاحبة المدرسة « خياطة » ومن هنا معرفة أمى بها ، وإرسالى إليها
وكان يساعد هذه السيدة رجل قصير نحيف ولكنه غليظ الكبد ، وكل
ما أذكره أننا لم نكن نرى البنات أو نختلط بهن ، بل كنا نوضع فى حجرة
ضيقة ، توصلد علينا بالفتاح ، فكانت هذه الحجرة هى المكان الذى
نلتقى فيه الدووس وهى الساحة التى ناعب فيها ، وإليها يجيئنا طعمنا ظهراً
وكنا إذا تركنا المعلم نزحزح الأدراج عن موضعها . لنفسح مكاناً لنا
ونحن نتقاذف الكرة أو نجري « البلى » على البلاط ، وما أكثر ما كسرنا
زجاج النوافذ وغرم آبؤنا ثمنه .

وكان مساعد المدير رجلاً فظاً كما قلت - إذا أخطأنا أو قصرنا -
بأمر الواحد منا أن يخلع الطربوش ثم يضربه على رأسه العسارى
بالخيزرانة . وكنا فى الفصل سبعة أو ثمانية ، فحدث يوماً أن أوسعنا ضرباً
على رءوسنا فثرنا به من فرط الألم ، وتمردنا عليه وأشبعناه لكلاً وركلاً ،
ومزقنا له سترته الطويلة - الاستانبولين - وخطفنا العصا من يده وأذقناه

وقعها على أصابع يديه وعلى ركبتيه ولا أحتاج أن أذكر أننا طردنا وأن المدرسة استغنت بالبنات الوديعات عن الصبيان الملاعين .

وكان ابن زوجة أبي معي في هذه المدرسة ، فلما طرد كما طردت ، وكان الوقت قبل الظهر خاف أن يذهب إلى أمه بالخبر ، فأشرت بأن لا يفعل ، واقترحت أن نبحت بقية يومنا عن مدرسة أخرى ندخلها ، فنخرج من هذا المأزق ، فوافق ففعلنا ، واهتدينا إلى مدرسة في شارع « تحت الريح » أو « درب سعادة » لا أذكر ، وكان من الغريب أن صاحبها قبلنا بلا كلام أو سؤال أو مراجعة .

وبعد نحو أسبوع عرف أبي ما كان ، فلم يقل شيئاً ولكنه أخرجنا من هذه المدرسة وألحقنا بمدرسة أخرى في شارع محمد علي علي ، مقربة من القلعة وتسمى مدرسة « القرشوللي » وأظن أن زوجته هي التي هدته إليها وأشارت بها ، فقد كان صاحبها تركياً ، وفي هذه المدرسة كان الضابط — وهو تركي أيضاً — يجلدنا بالسوط ، ولا نكران أنه كان يترفق بالصغار أحياناً ولكن السوط كان في يده ، وكان يكفي أن يلمسنا بطرفه وقد بقيت بهذه المدرسة إلى آخر العام واجتزت امتحانها ، ولكن صاحبها أبي أن ينقاني إلى « فمسل » أرقى ، لأنني صغير السن ، فبقيت في السنة الأولى عاداً آخر بلا موجب سوى حادثة هذا المدير أو الناظر الذي استفضأ جسمي واستصغر سني ، واستكثر على السنة الثانية من أجل ذلك .

وكنت أعود عصر كل يوم فأرمي كتبي وكراساتي ، وأخرج إلى الشارع لألعب مع أقراني ، فأزجر عن اللعب فأصعد وأطل على اللاعبين من الشرفة ، وبني حسرة ولطفة . وأسمعهم يصفونني ، « بالعقل » و « الهدوء » فألعب « العقل » وأدب « الهدوء » فقد كنت مكرها على ذلك لاندفعوا إليهم بطباعي وميولي ، ومتى رأيت طفلاً ساكماً قليل الحركة ، فاعلم أنه مريض

أو ضعيف أو ممسوخ ومتى يلعب الواحد ويجري وينط إذا لم يفعل ذلك في طفولته .

ويدخل الليل فأجلس قريباً من المصباح وأفتح الكتاب وأقرأ خوفاً من السوط لارغبة في التعليم ، ويراني أبي فيشتاق على عيني أن تؤنيهما القراءة في الليل ، فينهاني عنها ، فأطوى الكتاب وأسكت ، وأضيق ذرعاً بهما الصمت ، فأفتح فمي وأهم بكلام فينهاني أبي وينهرني ، ويقول لي : « لا تقاطع الكبار ، ولا تحشر نفسك معهم » فأقول أنه ليس هنا صغار أحشر نفسي معهم فمع من أتكلم ؟ فيعبس ويضع أصبعه على فمه ، فأسكت ثم ينفذ صبري فأعود إلى الكلام فيقول لي ألم أقل لك إن هذا الكلام لا يليق . فأعترض بأبي أراه يتكلم وأرى أمي تتكلم فلماذا يليق بهما ما يليق بي . فيتسم ولا أدري لماذا . ويربت لي على كتفي وخذلي ، وقد يقبلني ويمسح لي شعري ، فأتململ وأقول له إنني أريد أن أتكلم وألعب فمع من ١٢ بنت الخادمة لا يليق أن ألعبها لأنها بنت ، وأخى أصغر مني بأربع سنوات وهو على كل ناظم :

فتحملني أمي إلى الخادمة ، وتوصيها بي ، وتتركني معها ، فقسري عني بحكاياتها وأحاديثها حتى يغلبني الناس :

وكننت أرى أبي يلدخن وهر متكىء بكوعه على نخدة فيتلوى الدخان في جو الغرفة ويتلوى خياله على الحائط ، فأتبعه بعيني تارة ، وبأصبعي تارة أخرى . واشتهيت مرة أن أقلد أبي : فجئت بورقة ولففتها على صورة السيجارة وجعلت أضعها في فمي وأنا متوكيء على الوسادة وأنفخ كما يفعل أبي ، ولكنه لم يكن هناك دخان يتصاعد ويتلوى ، فأشعلت عود كبريت وأضرمت النار في اللقافة واتفق أني وضعتها على الوسادة فاتصلت بها النار وامتدت إلى حشوها من القطن تحت الكسوة ففزعت وخرجت أعلو ، واختبأت وبعد قليل كانت النار مندلعة في البيت ، وكان

كل من في البيت يجرى بالطشوت والأباريق والقلل لإطفاء الحريق فلم يجد ذلك شيئاً وامتدت النار إلى غرفة أخرى ولم تكن شركة الماء قد مدت أنابيبها إلى البيوت . وكان السقايمربنا كل يوم فيبدأ لنا الأزيار والطشوت وما إلى ذلك من الأوعية وكانت وسائل الاتصال بطيئة ، ولا سيما في الأحياء الوطنية ، فلاتليفون ولا ترام ولا سيارات ولا شيء إلا الدواب ومركبات الخيل وكانت إدارة المطافئ تنقاضي خمسة جنهات إذا دعيت لإطفاء حريق . على أنى لأدرى بماذا كانت تطفئ الحرائق ولاماء هناك يجرى فى الأنابيب . فإذا قلت إن البيت احترق ، وأن الحارة كلها شبت فيها النار فلا يصدقنى القراء ، والمنزل يقول « يعملها الصغار ويقع فيها الكبار ، أى والله :

- ٣ -

كان لأخى الأكبر زوجتان من قريباته تقيان معنا فى بيت واحد لهما منه الدور الأوسط ، ولنا جدتى وجدى وأبى وأمى - الدور الأعلى - وللمكتب الغرف - أو المناظر - التى كانت فى ساحة البيت ، أوفنائى . وكان أخى - كائى - مزواجاً . فأما أبى لأعرف لماذا كان هكذا ، فما أعرف فى أسرتنا كلها من كانت له زوجتان فى وقت واحد ، أو من طلق زوجته أما أخى فقد يبدو من المستغرب أن يتخذ امرأتين فى حياة أبىه ، وهو لا يكسب قرشاً بمرق جيئنه ، ولا مورد له إلا ما يجد به عليه الوالد ، ولهذا يحسن أن أقول ، إن أباه وزوجه وهو صغير - كما كانت العادة فى ذلك الزمان - ليفرح به ، وكانت ليلة الحلوة ليلة سوداء أعنى أن السراى أقيم ، وأضيئت الأنوار ونشرت الرايات ، ومدت الموائد ، وراحت الموسيقى تعزف ، وشرع المغنى يصعد إلى « التخت » وإذا بنياً يجرى من سمخراط أن المرحوم إبراهيم أفندى الوكيل توفى فجأة ، فأطفئت الأنوار ، وانفض السامر وشرع الذين كانوا فى جلد وسرور وحبور ، يتهياون للسفر إلى المآتم .

ومضت سنوات فلم يعقب أخى نسلاً ففاق أبى ، وقال قائل إن الزوجة عاقر ، وقال آخرون قد يكون العقم علته من « الولد » فما العمل .. العمل أن يزجوه من أخرى على صيل التجربة وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان وقد كان ، ولكن « الولد » - أعنى أن أخى - ظل لا يعقب شيئاً ، ولم يفد من هذه التجربة ، إلا أنه صار ذا زوجتين .

وعلى ذكر العقم ، أقول إن أخى هذا وشقيقته ، عليهما رحمة الله ، من أخرى ماتت قبل أن يتزوج أبى أمى ، وقد شاءت الأقدار أن يكون نسلها عتياً ، وأن يحرم ابنها - أخى وأختى - بعض زينة الحياة الدنيا وأن يقاسيا من جراء ذلك ما يقاسيه كل راغب فى الذرية ، وكان بلاء أعظم ، فقد اضطرت أن تصبر على الحرمان ، وأن تحتل ما يبيده بعلمها من اللهفة على البنين وأن تنصح له بالزواج ، فلما فعل ورزق طفلاً طلق أمه - أو ماتت لا أدري ، فتولت هى تربيته وتبنته وتعهدته وأولته ما انطوت عليه نفسها من عطف الأمومة المخنوقة وحفظ لها هو ذلك ، فكان أبر الناس فى حياته وأحناهم عليها وأعمقهم حزناً لما وافاها الأجل .

وأعود إلى أخى بعد هذا الاستطراد فأقول إنه كان على هذا لا يجرؤ أن يسهر ، أو أن يدخن أمام أبى ، فتد كان السهر والتدخين محرمان على غير جدى وأبى ، فأما جدى فكان يتخذ ما يسمى « الشبك » - بضم الشين والباء - وهو قصبة طويلة جداً نحو ذراع ونصف ذراع يتصل بآخرها بحشى شئ بالدخان وتوضع عليه الحمرة . وأما أبى فكان يتخذ السجائر ولكن ما كان مباحاً لها ، كان محرماً على سواهما - لا أدري لماذا - وإن كان أخى ذا زوجتين .

وقد رأيت أخى مرة يدس السيجارة فى جيبه وقد خرج عليه أبى فجأة فتحرق الحبيب ، فيطبق عليه أصابعه ليخمد ما اضطرم .

وما أكثر ما كان أبى يضربه ، لأنه يسهر ، ويدخن ، ولكن العلاقة الكبرى كانت لما هو أدهى من السهر والتدخين ، حدثنى أخى بعد أن كبرت وأصبحت رجلاً مثله لى شارباً أن أفتلها ولحياً أحلقها ، قال : (لم يكن باقياً على العيد إلا بضعة أيام ، فخطر لى أن أقص شعرى قبل أن أذهب إلى الحمام) - وكان أخى مغرماً بحمام السوق أو الحمام التركى ، يؤثره على ما عداه - وكنت قد مللت حلاقنا ، وكان شيخاً وقوراً له لحية كثة

هائجة لا يعنى بتشذيبها وتقليمها ، وسئمت فوطته الحمراء المخططة ، والطشت الذى يضعه لى عند رقبتي ويترك لى حبله ، فيسيل الماء الذى يصبه على رأسي بلا حساب ، على ثيابي وينفلد إلى بدني ، قتلت التمس حلاقاً آخر ، وذهبت أجوب الشوارع وعيني على دكاكين الحلاقين ، حتى خرجت من الأحياء الوطنية ودخلت فى الشوارع التى يكثر فيها الأجانب ، واهتديت إلى حلاق أجنبي ، فتوكلت على الله ودخلت فأقبل على يرحب بي ، وأجلسني على كرسي وثبر لا عهد لى بمثله ونشر على صدرى فوطة بيضاء مكوية ، لها كمان يدخل فيها ذراعاى ، وقص شعرى ، ثم نفّض الفوطة وجاء بغيرها وحلق لى ذقني بماء الكولونيا ، ثم راح يقترح على أن يصنع كيت وكيت مما لم أكن أعرف مثل « الماساج » و « الشامبو » إلى آخر ذلك ، وأنا جذل أهز له رأسي أن نعم ، كلما عرض على شيئاً من ذلك ، ثم قال : « مانيكور » فهزرت رأسي موافقاً وإن كنت لا أعرف ماذا يعنى ، فدعاني إلى ماوراء ستار ونادى فتاة شقراء حلوة لا أدرى من أى الفراديس جاءت ، وقال لها كلاماً فابتسمت لى وتناولت كفى الكبيرة الخشنة التى ينطى ظهرها الشعر ، وعكفت على أظافرى تنظفها وتقصها ، ثم تناولت شيئاً جعلت تدهنها لى به وأنا أكاد أموت من الحجل ، وصدقنى حين أقول لك إن هذه أول فتاة غربية لمست كفها كفى ، فإذا أضفت إلى هذا أنها كانت ساحرة الجمال ، ذهبية الشعر ، وضاعة الحيا ، مشرقة الجبين ، نظيفة الأسنان ، وأن ابتسامتها فاتنة ، وفى صوتها علوية تذيب المرء ، وأنها هيفاء بمشوقة ، وخفيفة لطيفة ، وأن فى نظرتها ليناً يغرى بتطويقها وضدها ، وأنى ما عرفت من النساء إلا البديئات اللواتى يخنقن روحهن ما عليهن من أكداس اللحم — إذا أضفت هذا كله — فإن فى وسعك أن تدرك عذرى حين أقول لك إنى عشقتها . ولم أستطع أن أقول لها شيئاً .

وكنتم أنظر إليها كالآبله ، ثم فتح الله على ، وأطلق لسانى من عقاله فقلت وأنا مضطرم الوجه من الحجل : إنى لم أكن أدرى أن المانيكور هو

هذا ، وإني آسف فإن كفى كبيرة كالرغيف وعليها غابة من الشعر ، وأحسب أنه لا يليق بي أن أدعها تصبغ لي أظافري ، فإني أخشى أن أضطر إلى إخفاء يدي حتى يذهب هذا اللون ، وهمت بأن أنزع يدي من يدها ، فشدت عليها ولم تركها لي ، وقالت بأعذب ابتسامة رأيتها في حياتي :

إنه يسرها أن تنظر إلى هذه الكف الكبيرة الحشنة ، وإن أكثر ماترى من الأكف لين بض غض كأكف النساء ، فلم أدر ماذا أقول لها في جواب ذلك ، ولكنني أنفت أن تصبغ لي أصابعي ، وأبيت أن أناولها يدي الأخرى وقلت حسبي واحدة ، وسألها : متى يزول ذلك ؟ فقالت : « آوه ! إنه لا يدوم . . لا تخف » فاشتيت أن أقول لها أني أحب أن أراها مرة أخرى ، ولكن لساني وقف في حلق ، فلم أنطق بحرف ، واكتفيت بأن أمد لها يدي مصافحاً ، فوضعت فيها راحتها الصغيرة فهزتها كأنما كنت أصافح رجلاً فادهشني أنها قالت :

« أرجو أن أراك » فكان جوابي السخيف : « ولكني لا أستطيع أن أقص شعري كل يوم » فابتسمت وخيل لي أنها تكاد تميل على وقالت :

« إني أخرج من هنا كل يوم الساعة السابعة مساءً » ، قلت :

« آه ! إذا كان هذا فساانتظرك على الرصيف الآخر .. كل يوم » .

قال أخي وهو يقص على هذا الخبر : « وقد كان . . تعلقت بها ، وصرت أراها كل يوم فنذهب نتمشى ، وعرفني أشياء كثيرة لم أكن أعرفها ، ولو استطعت أن أتزوجها لفعلت ، وقد أطلعها على كل شيء ولم أخف عنها شيئاً ، ففهمت وعذرت ، وبقينا صديقين حوالى عامين حتى خطبها واحد من أبناء جنسها ، وأحسست منها زهداً فيه ، فأقنعها بالرضا به لإشفاقا عليها ، ورضية في الاطمئنان على مستقبلها .

ولكن هذا موضوع آخر ، فلنرجع إلى المانيكور ، وكانت يمانى لسوء الحظ هى التى صبغت أظافرهما ، فلما عدت إلى البيت وقابلت أبى تناولت يده لأقبلها ، فسألنى :

ما هذه الحناء التى فى أصابعك ؟ فأخبرته بما حدث ، وفى ظنى أنى لم أصنع سوءاً ، وما كنت أعرف ما هو المانيكور ، وقد قلت له : إنى لما عرفت ما هو أبيت أن أصنع أظافر يدى الأخرى ، ولكن وجهه أربد وهو يقول :

« وما فرق ما بينك وبين النساء الآن » ونهض فدعا إليه الخادم « العم محمد » كما نسيه وأسر إليه شيئاً فخرج ، وما لبث أن عاد ووراءه ثلاثة من الزبائن الأقوياء ، فأشار إلى فربطونى بالحبال ، وألقرنى على الأرض ، وأنا من فرط الدهول لأقاوم . وجاء أبى بخززانة طويلة وأهوى بها على ، لا يتقى شيئاً ولا يبالى أين وقعت وماذا أصابت من بدنى ولم يتقلنى إلا خالتى (يعنى أوى ، فقد كان يدهوها خالتى) فقد أسرعت وانحدرت إلى ولم تبال هؤلاء الزبائن ، ولم تعباً بظهورها أمامهم سافرة وفى ثياب البيت ، وارتمت على ، وجعلت نفسها بينى وبين الخيزرانة فاضطر أبى أن يكف ولكنه أمر فسجنت فى إحدى « المناظر » ثم خرج .

وأنتم أنا الحكاية فأقول إنى توجعت لأخى وحزنت لما أصابه من الضرب الأليم ، وما هو فيه من السجن ولم يكن أحد يستطيع أن يصنع شيئاً ، وإلا حل به غضب أبى ، ولكنى كنت طفلاً لا أدرك هذا إدراكه ، فصمت على إخراج أخى من محبسه وفك وثاقه . وكان لابد من الحلة ، ولكن الأطفال شياطين فدبرت الأمر مع أخى الأصغر ، وجليلة بنت خادمتنا ، وكان مفتاح « المنطرة » مع الخادم فلم نزل به نلاعبه ونتجسب منه غفلة حتى سرقت المفتاح ، وأوعزت لى أخى وجليلة أن يبعدا به عن فناء

البيت ففعلا ، ففتحت الباب وأعزاني حل الحبال فجئت بسكين وتقطعها ، وأطلقت سراح أخى وقد ظل يحفظ لى هذا الجميل طول عمره .

وهنا ينبغي أن أذكر أنى عدت إلى الخادم فلمست له المفتاح فى جيبه وهو لا يدرك ولا يزال هذا الخادم حيا ولا يزال يتعجب لأخى كيف وسعه أن يقطع الحبال الغليظة التى كان موثقا بها ، وأن يفتح الباب ويخرج ، وكلما ذكر هذه الحادثة ، هز رأسه وقال : الله يرحمه ! لقد كان عفريتاً .

وكان هذا أول مر حرصت فى طفولتى على كتمانته .

- ٤ -

قلت لنفسى بعد أن كتبت الفصول السابقة ، وسردت فيها بعض ما أذكر من عهد الطفولة ، واسمع يا هذا ، لقد رأيت أباك يضرب أخاك ، ويلهب له جلده بالخيزرانة الطويلة ، ولم يضربك — كما كان يضربه لأنك كنت أصغر من أن تحتمل ذلك ، أو لأنك كنت أشبه بالقطعة الأليغة أو كلب البيت الذى يتميل منه أصحابه العيث ولا يرضون عنه أه يسمرون به إلا إذا لعب وتشيطن وأظهر لهم نشاطه وذكائه ، أو لعل اتقاءه أن يضربك ويشويك بالعصا ، راجع إلى أن أملك حية ترزق ، وفى البيت معك وأن أم أخيك لحقت بمن غبر فلك دونه من يحامى عنك وأخولا كان قد بلغ مبلغ الرجال فكان أبركما لا يسعه إلا أن تثقل عليه الشعور الخفى بأن هذا الشاب يزحزحه شيئاً فشيئاً عن مكانه : وينزله يوماً بعد يوم عن سلطانه ، وأنه هو الذى سيحل محله عاجلاً أو آجلاً ، كما حل هو محل أبيه — أى جدنا — وإن كان على قيد الحياة ، وعسى أن تكون بواعث الضرب لا هذا ولا ذاك بل تصادم الشعورين ، شعور الابن بأنه هو الشاب ، وأن أباه قد شيخ ، كائنة ما كانت سنة فى الحقيقة وشعور الأب بأن ابنه هو ابنه فهو طبل بالغاً ما بلغ طوله وعرضه ، أو لا أدري ما العلة والباعث الصحيح ، وأنه ليخطرلى مائة تعليل وتعليل ولا أرى واحداً منها وحده يقنعنى .

وخطرلى وأنا أحدث نفسى بهذا أن هذا التفاوت بين الأب والابن من المصائب . فنحن الآباء ، قد كبرنا فى نظر الأبناء ، ولا يمكن أن

يعد الابن أباه إلا شيخاً هرماً ، تقضى شبابه من زمان طويل ، ولا يمكن أن عليه وتعزى هو منه ، فلا يجوز له ما يجوز للشاب ويعقل منه ، ولا يليق به إلا حال الشيوخ الفانين ولو كانت الحقيقة أنه ما أنفك قويا كفئاً للحياة .

وذكرت - وأنا أدير هذا المعنى في نفسى - أنى لم أسمع ولم أر قط : في طفولتى ، شيئاً - كلمة أو إيماءة أو نظرة - تنبئ بالحب بين أمى وأبى . وكان يحيل إلى أن العلاقة بينهما قوامها الاحترام المتبادل أكثر مما كان قوامها الحب . وهذا خطأ . ولكنه هو الذى كان يبدو فى تلك السن الغضة . ولقد مات أبى وأنا صغير وخلف لى أمى فحزنت عليه اثنتين وثلاثين سنة ، لم تخلع فيها السراد يوماً واحداً ، وقد يكون هذا من الإكبار لا الحب ، ومن أجل ما طابت به نفسا فى حياته ، ولكنى أظنهما كانا متحابين أيضاً فقد كنت أسألهما فتبتسم وتطرق استحياء ويضطرم وجهها حتى فى كهولتها الداوية ، وألح عليها بالسؤال فتزجرنى ، وتزجرنى عما نظنته عبثاً منى ، وكنت أغالطها أحياناً وأفاجئها بالسؤال على هذا النحو « ماذا كنت تحبين فى هذا الرجل المزواج المتعب الذى جعل حياتك معه جحماً فائراً بالغيرة » فكانت تؤخذ على غرة وتقول ، قبل أن تفكر : « إنك لاتساوى الظفر الذى كان المقص يطيره من أصبعه » وترانى ابتسم فتدرك أنها اعترفت فتغضب أو تتكلف الغضب ، وأحياناً تطردنى من مجلسها ، وهى تجاهد أن تعبس ويأبى وجهها إلا أن يضحك وتقول لى « قم . طيب قم . كفى قلة حياء . » فأنهض طائعا وأميل على رأسها فأقبله فترضى عنى وتندعو لى فأقول لها ويلدع على الباب .

« اسمعى . لم أعرف أبى كما ينبغي أن أعرفه ، فقد مات قبل أن أكبر ، ولكن القليل الذى عرفته مضافاً إلى الكثير الذى سمعته منك ، يقنعنى بأنه « هو » لم يكن يساوى الظفر الذى يطيره المقص من أصبعك وعزيز على

أن أقول هذا عن أبى ؛ فقد كان على العموم رجلاً فاضلاً ذا كرامة ، وإذا كنت أبخسه حته فذاك لأنك عندى بمنزلة لاتدانيها منزلة ، أنت خير الناس وسيدة الدنيا ؛ وكل من عداك هباء . وأسمى أيضا . أنا أحاول أن أحيا حياة فاضلة لأنك معى فى الدنيا . مجرد شعورى بوجودك يرفع نفسى ، ويعصبنى من كثير ، وما هممت بشيء إلا رأيتنى أسأل نفسى — هل ترضى عنه أى لو علمت أو لا ترضى — فأقدم أو أحجم تبعاً لجواب السؤال . ولو خلت منك دنياى لما بقى شيء يصلنى عن الشر والرزيلة ، ولست أطيع البعد عنك لحظة ولكنى مقتنع أنه لو كان أبى حياً لما أمكن أن أحتمله ، ولا اظفت ان أعيش معه تحت سقف واحد ، ولعل ذاك لأنك — وأنت سيدنى — تدعيني أشعر أنى أنا السيد ولكنى أظن السبب أنى أحبك وأجلك ، وأنى مدين لك بكل ما جعلنى كما أنا ، أطال الله عمرك .

ولكنه سبحانه ، لم يشأ أن يفعل .

كلا ، لم يكن للحب ذكر ، فى بيتنا ونحن أطفال . ولكنه كان معى هذا موجوداً ، بين أبوى على الأرجح — وان كنت أنا لا أرى دلائله ومظاهره ، وبين جدى وجدتى على التحقيق . وكان جدى قد قارب المائة ، وجدتى قد ناهزت السبعين ، ولكنهما كانا كاطلين ولم يكن أحلى من تناجى هذين القديمين اللذين ردهما الهرم إلى مثل حل الطنولة وسداجتها وطبيتها ، وكانا لا يعبآن شيئاً بوجودى ، وهما كما يقول الشريف الرضى :

تساقينا التذكر فانتنينا كأن قد تساقينا الطلاء

وكان الذى يتناجيان به سهل الفهم فقد كان قصصاً وحكايات قديمة ، مما وقع لها وجرباه ، ولكن الخنو ، وعلوبة الصوت ، والذوبان ، وحلاوة اللمة فى العين التى انطقاً نورها أو كاد ، واضطراب الشفتين إذ يقول الشيخ برقة : « هل تذكرين يا حاجة .. » فهز رأسها المصبوغ بالحناء

وفتر ثغرها الأذردويومض السرور في عينها ويشرق به وجهها الأحمر -
فقد كانت بيضاء حلوة - وتقول « ايه » ممطوطه طويلة ، ولكنها « آية »
الرضى والحمد لله والاعتباط بحال الذكرى . لا الأسف والأسى ، فقد
كان حب هذين المهملين من الدنيا ، لإنهما معافيهما ، وأن غرفه واحدة
تجمعهما ، وأن لما بنين وحندة ، كلهم أحياء وبخير والله المنه ، وكنت
أرى منها ذلك فأدرك أنها مسروران وإن كنت لا أدرك كنه السرور ،
وأحس بفرحة غريبة بهذين الوجهين اللذين غصنهما السن وحضرت فيهما
أخايد عميقة ، فأرتقى على جدنى وأطوقها وأقبلها ، فنضنى وهى تقول
ضاحكة : « إوع تفعضنى يا ولد » ثم تهوى على رأسى أو خلى بفمها
الفارغ وتقبلنى فيكون لقبها صوت كقولك « مق »

وأنا الآن رجل ، ولى زوجة وبنون ، لا بنات ، فقد أبت مشيئة الله
أن يكون لى بنات على ايثارى لهن ، وأنا ابن هذا الزمن ، لا ذاك الذى
عاش فيه أبى وجدى من قبله ومع ذلك أرانى أستحى أن أقول لزوجتى
أنى أحبها ، وأشعر أنه لا يلقى بى أن أقول ذلك ، ولى كل هؤلاء البنين ،
وأحس أن زمن الكلام فى ذلك قد فات وهو لم يفت فى الحقيقة ، لكننا
جربنا وعانينا وفكرنا ، فعرفنا - عرفنا لماذا يحق للمرء أن ينتظر ،
سحره ، وزالت فنته ، وفقد الحب تلك القدرة على خداع النفس
ومغالطتها وإيهامها .

وياربما قلت لنفسى ، حين أخلوبها وتتلفق خواطرى فى هذا المجرى :
« لماذا أخجل ان اقول لزوجتى انى احبها ، امام هؤلاء الأبناء . . »
واقول فى جواب السؤال ان هؤلاء الأبناء يروننا كبارا ، ولا يتوقعون
منا ما هو متوقع من الشبان ، ولعلمهم يظنون بنا اننا كنا فى صدر حياتنا
كل شيء إلا شبابا ، ويهيجنى ذلك ويشير نفسى فأقول ساخطاً معانداً :
« ولكنى لا انوى ان اجعل حياتى وفق ما يظنون ، قاتلى الله ان فعلت ،

وأدخل على زوجتي ويكون معها هؤلاء البنون وغيرهم من الضيفان — من الأهل أو الغرباء — فأتعمد أن أثني بالحديث إلى ذكر الحب ، وأهم بأن أجرى مع العناد ، فأحس كبح الحجل ، فأضطرب وأخرج من المأزق بمزحه ، فيظن السامعون أنني أهزل ، وتعرف هي أنني أجد .

فلا فرق بيني وبين أبي ، وأن كان بين زميننا كل فرق وما زلنا ، نحس اللجام على أشداقنا ، والأعنة الخفية التي تصدنا وتاوى رؤوسنا ، وتوجهنا وجهة غير التي تدفعنا إليها طباعنا وغرائزنا وبعد عشر سنين من الزواج والألفة والحال الوثيق يحذر وجه الزوجة إذا همست في أذنها بكلمة حب أو لفظ يثني به وإن كان لا يصارح وما أعرفني استطعت قط أن أقول لواحدة أنني أحبها بالغا ما بلغ جنوني بها ، فإذا شق على الكبح ونازعني نفسي أن أقول ، قلت ولكن مازحاً ، أو متظاهراً بالمزاح مصنعاً له لأشككها ، ولأنني استحي أن أنطق باللفظ ، أو على الأصح لأنني أشعر أنني إذا قلت الكلمة فقد صرت عبداً — أعني عنداً للمرأة لا للكلمة — وأنها حقيقة إذن أن تتخذ مني حصاناً تركضه بين بين الوعور ، وأنا لا أطيق أن أحس بقيد ما ، ولو كان من حرير ، وما أحسست قط بقيد إلا نفرت وشردت وتمردت : وأنا في كل يوم أفيد نفسي وألزمها أشياء شتى ، ولا أزال قابضاً على اللجام أشده وأصرفه إلى هنا وهناك ، ولكن هذا لا يتسنى إلا إذا كان زملي في يدي ، والأمر كله إلى إرادتي ، فإذا شعرت أن يداً أخرى تريد أن تقبض على الزمام طار عقلي ، وفقدت اتزاناً وركبت رأسي ، وأكون واثقاً أن هذا خطأ ، وأنه عناد صبياني ، وأني لو وكلت إلى نفسي ورأيت لما فعلت إلا ما يبراد مني أن أفعل ولكن طبعي تغلبني فأشقى ، بين دعوة العقل العاجز ودموة الطبع الجامح .

والناس لا يضربون بنهم في هذه الأيام كما كان أبي يضرب أخى . وهم في هذا على حق ، فإن الضرب ليس تأديباً وإنما هو ترفية عن الوالد ،

ووسيلة لراحته من ثقل الشعور الذى يجيش بصدرة ، فهو شىء ينفع الأب ولا ينفع الابن .

ودأب الناس فى زماننا أن يترفقوا بالأبناء ويجنبوهم التنغيص ، وهذا جميل ولكنى أحس أنهم يبالغون فى الرفق ويسرفون فى اللين ، ويجعلون حياة الطفل أرغد مما ينبغى وأخلوا من المشاكل والعقد ، ومن كل ما يستدعى إجهاد الفكر أو مايستثير الشعور ويوقظ النفس ، فليتهم يضرّبون أحياناً - برفق أيضاً - ولا بأس من أن يخرجوهم إلى العناد ويدفعوهم إلى التمرد ، ليعرفوهم بأنفسهم ويكتشفوا لهم عن بعض خفاياها .

جرتى هذا ببلى وأنا أكلم شاباً فى الثانية والعشرين من عمره ، ولم أكن أعرف ماذا تعلم أو يتعلم وكان كلامنا فى شىء من الهندسة فوافقنى على رأى كان يعرف كما تبين فيما بعد أنه خطأ محض فقد كان طالباً فى مدرسة الهندسة وكان فنه ما خضنا فيه ، ومع ذلك لم يخالفنى ، ولم يصحح لى غلطى فإذا كان هذا لا يضرب حتى يدمى جالده ويتسلخ ليتعلم احترام النفس وليفهم أن المخالفة ليست عيباً وأنها ليست من سوء الأدب بل من الواجب مادام يعتقد أنه على حق - فمن غيره الجدير بالضرب . . وكيف تكافح هذه النعومة وذاك التطرى لتجعل من ابنك رجلاً يعرف قدر نفسه ويكرم عقله . . أما أنا فسيلى كسيل أبى ، ولست أستعين « بالزبائن » ولا أنا أقسو قسوته ، ولكنى لا أحجم عن قرص آذانهم ولكمهم إذا رأيتهم يجنون أو يكذبون أو يكون الغير « ما ييكى الرجل » وقد جاعنى واحد منهم وقال أن تلميذاً معه فى المدرسة ضربه ، فسألته عنه أهو أكبر منه .. وهل هو أضعف من أن يضربه كما ضربه .: فكانت نعم هى جواب السؤالين ، فتناولت أذنه الصغيرة وقرصتها قرصاً وجيعاً وقلت له « ألم يكن فى

الشارع حجر تناوله وتقلعه به فتفتح له قرنه . . قال « بلى » قلت « لماذا
تجئنى باكياً وفى وسعك أن تنصف نفسك منه » . وأنذرتة أنى لا محالة
قاتله إذا تكرر منه ذاك ، ولم يكن القتل ما أعنى ، وإنما عنيت الضرب
الأيـف ، وقد فهم عنى الطفل ، وأثبت لرفاقه أنه كفء لهم ، فَهَوَّاهُ
وهاووه ، وقد احتجت بعد ذلك أن أجعل جرأته غير راجعة إلى مجرد
الخوف منى .

أظن أن هذا خير وأهدى من هذه التربية الطرية التى تنضى
إلى التخث .

— ٥ —

حليمة وعم محمد

كان خادمتنا رجلاً يدعى « عم محمد » لا يعرف أحد من أين جاء — حتى ولا هو يعرف ، وقد سألته من أى بلاد الدنيا هو ، فشوّر بيديه وهز رأسه ولم يجب ، ولعله نسي ، فقد علت سنه جداً ، والأرجح أنه جاء إلينا وهو صبي لا يفقه ، فقد كان لكل أسرة خادمتها الذى نشأ وترعرع ، وشاب أيضاً ، فى ظلها ، ولم يكن أحد ينضو عنه ثوب هذه العمومة إلا ثلاثة — جدى وأبى ، من الرجال ، وجدتى من النساء أما سائر أهل البيت فكان اسمه عندهم « عم محمد » وكان هذا بعض ما يكرم به الناس خدمهم فى ذلك الزمان .

ولا أذكر كيف كان وجهه فى حدثى ، فإن مسافة الزمن بعيدة ، ولكنى أنظر إليه الآن — فإنه لا يزال حياً يرزق — وأرى كيف كان يمشى معتدل القامة كالسيف يأبى أن يتخذ الترام أو غيره أو يقطع المسافات بين أرجاء القاهرة إلا على رجله ، وكيف أنه لا يمرض ولا يرقد ولا يشكو شيئاً حتى فى هذه الشيخوخة العالية وكيف أنه لا يزال يشرب « البوظة » التى أعرفه — مذ عرفته — كلفاً بها لا ينصرف عنها أو يتوب ولو قطعوا رأسه وأوصاله فيخيل إلى أنه كان دائماً هكذا — بشاربه الخفيفين ، وأسنانه القوية التى لم تسقط ولم تتزعزع منها واحدة . ووجهه المغضن الحافل بالأخاديد والحفر ، وحدائره الأصفر الباهت الذى يحرص مع ذلك على صقله فيمسحه

بطرف المعطف العتيق الذى خلعتة عليه منذ خمسة عشر عاما ، وبأبى مع ذلك أن يبلى أو يتمزق .

وكان عمله مقصوراً على ساحة البيت وما فيها من غرف أو « مناظر — كما كانت تسمى — وعلى قضاء الحاجات من السوق ، ولا يجوز له أن يصعد إلى حيث السيداب فإن لمن خادمتهن التى لا ينبغي لها تجاوز السلم إلى ساحة البيت وكانت حليلة هذه فتاة سمراء واسعة العينين مقوسة الحاجبين ، طويلة الأهداب وممشوقة رشيقة ، وكانت هى التى تنزل إلى عم محمد إذا احتاج البيت إلى شىء فتقف على آخر درجات السلم وتقر على الباب فيجئ إليها ، فحدث ما كان لابد أن يحدث — أحبا وأحبته .

وأقبل عم محمد يوماً على جدى ، وهو جالس على كرسيه فى الدهليز وفى يده نبوته وشفتاه تتحركان بالتلاوة ، ووقف إلى جانبه يفرك كفيه ويتحين من الشيخ التفاته إليه ، فلما فعل ، مال عليه وأسر إليه أنه يطلب يد « حليلة » فهش له الشيخ لأن الزواج نصف الدين ، ووعد أن يخاطب أبى فى الأمر وأن يحمله على الموافقة .

وقد كان — تزوجا ، وصارت حليلة ، تنتقل فى الليل إلى غرفة « عم محمد » فى البدروم كما يسمى فى مصر ، أو السرداب كما يسمى فى العراق .

وقد جهزوها له بسرير وخزانة وصندوق أحمر ، وحصيرة ملونه وبساط قديم مما كان فى البيت ، وكانت حليلة هذه قوية جليلة لا تفتر ولا تن ، فكانت تعمل طول النهار وشطراً من الليل ، فى البيت — تكنس وتمسح وتغسل . وتنفض وتشيل وتحط ، وترتب ، وتغزل وتعجن وتخبز وتساعد فى المطبخ ، وتطلع تنزل ، حتى إذا جاء وقت النوم انحدرت

إلى « عم محمد » وبقيت معه إلى الفجر ، فتنهض لتوضي الشيخ وتعد له « الشبوك » والقهوة . .

! وحملت حليمة ، فعظمت بطنها ، فأرادوا أن يترفقوا بها ، وأن يعقوها من عملها الشاق حتى تضع حملها ، ولكنها أبت وظلت تروح وتجي وتثيل وتحط وتقوم وتقعّد ، وهي سررورة وزاد وجهها إشراقاً ولمعت عينها بنور البشر والجلد .

وكان جدى يصعد بعد الغروب بقليل . أما أبي فكان يترك المكتب ليصعد أو يخرج ، بعد صلاة العشاء ، وينصرف الكاتب ، ويوصد الباب ، ويصفق عم محمد فتطل عليه حليمة من إحدى النوافذ - فما بقي من هذا بأس بعد انصراف الرجال - فيسألها « عاوزين حاجة . . » فتفسر ثم تجبره ، ويطمئن فيخرج متسللاً ويغيب ساعتين أو ثلاثاً ثم يعود وهو يتطرح من السكر ، وكان لا يشرب إلا البوظة وكان جدى ينهأ ويعظه ، وأبي يضربه وهو لا ينتهي ولا يرعوى ، حتى يثسا من صلاحه فأهمل أمره وتركاه للأيام ، فلم تزد إلا حباً « للبوظة » .

وقد سألته مرة « ألا يمكن أن يزهدك شئ في هذه البوظة . . » . .
فأجابني بسؤال « أهى حرام . . »

قلت « من عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم » .
فنظر إلى مستفسراً مستوضحاً فقلت أعني أنك أصبحت تفنى . من طول ما عاشرت أهل القلم . ولكن قل لى . إنك تشربها منذ نحو سبعين سنة ، أفلم تسأمها . سبعون سنة طويلة . إن المرء خلق بعدها أن يمل الحياة ، فكيف بالبوظة . .

فقال معترضاً « سبعين سنة إيه ياسيدى » .
قلت « معذرة . لنذع السن . ولكن ألم تسأم » .

قال « لم يبق لي ما أتسلى به سواها . »

قلت « وحليمة »

قال « حليمة . الله يطيل عمرها ويخليها لأولادها ويبارك لها فيهم »

فأقصرت ، وبودى أن أسأله « ألا يزال يحبها » .

وكانت ليلة أحياها « عم محمد » بالسهر في البوطة وهو آمن ، فقد كان جدى نائماً ، وأبى في بيت زوجته الأخرى ، فلما عاد وتطرح إلى غرفته ، ألنى حليمة راقدة ، ولكن عينها مفتوحات ، وإلى جانبها شيء مغطى بملاءة ، فوقف عند السرير ، ونظر إليها مستغرباً ابتسامتها وكانت عاداتها أن تنهض له حين يدخل عليها لتكون في خدمته حتى ينام فلما طال تحديقها فيها ، تحت الملاءة ورفعت ماتحتها ، على كفها ليراه ، فأفاق وذهب عنه خمار السكر ، وهوى على ركبتيه ، وأسند جبينه إلى مرتبة السرير وراح يبكي - بكاء الفرح لا الحزن ، فوضعت حليمة طفلتها ، وجلست ، ومدت يدها إلى رأسه لترفعه وتمسح له دموعه فتناول كفها ولثم راحتها ، ونظر إليها وقال .

« لو كنت أعلم لما خرجت »

قالت « خروجتك كان أحسن .. ماذا يصنع الرجل في هذه الحالة .. »

فسألها « كيف .. من كان معك .. »

قالت « لا أحد .. لم أخبر أحداً .. ما الداعي .. »

فدهش ولكنها ابتسمت ونهضت ، لتقوم بخدمته كعادتها ، وحاول هو أن يمنعها ، فسخرت منه ، وسخت له الطعام وقدمته إليه ليأكل . وكان لا يأكل إلا قبل النوم مباشرة ، وبعد أن يرتوى من البوطة فعكف على

طعامه وهو يتعجب لحليمة وقوتها وجلدها ، حتى ليحيثها المخاض فتشدد
وتحتمل آلامه في صمت ، وتضع وحدها وبلا معين . وبعد ساعة أو ساعتين
ترجع كما كانت ، لا فاترة ولا منهافة ولا مسترخية وجلال بخاطره أن حليمة
آية من آيات الله . وأنه سعيد بأن تكون زوجته ، وحديثه نفسه : على
ماروى لى أن يجعل مظهر شكره لله وإقراره بنعمته عليه ، أن يكف عن
معاقره البوظه ، ولكنها كانت نجوى ليس إلا .

وقال لها وهو يمسح يديه في القوطه « يجب أن تستريحى غدا على الأقل،

فاستغربت هذا الاقتراح وقالت « استريح . أنت مجنون .. »

ولم تسترح حليمة ولا دقيقة واحدة ، فكانت ترضع طفلها وتركها
وتواصل عملها المتنوع .

ولا تزال حليمة إلى اليوم — وقد جاوزت الستين — أقوى وأقدر على
العمل من عشر فتيات فليس أعجب من « عم محمد » إلا امرأته التي لا تكل
ولا تفارقها ابتسامتها كأنها مرسومة — ابتسامة العطف والرضى والتسامح ،
وما أكثر ما افتقرت إلى عطفها . ورضاها وتسامحها ، وكان حسبي منها في
كل حال أن تنظر إلى بعينها النجلاوين ، وأن أرى ثغرها المقر فتسكن
نفسى ويشيع في صدرى الاطمئنان ، ويعمر اليقين قلبى ، ولا يسعنى إلا أن
أجيبها بابتسامة . فتهز رأسها على مهل وتربت لى على كفى وتمضى .

صلق عم محمد فإن حليمة آية

- ٦ -

الحادثة الثالثة أن « جليله » بنت حليمة وعم محمد - أكلتها النار وأنا أنظر إليها مسحوراً . وبعد سنوات وسنوات طويلات المدد ، قرأت أن يبرون أضرم النار في رومية - عروس الدنيا يومئذ ووقف على تلها في حاشيته المستهرة ، وفي يده قيثارته يعزف عليها ، وعيناه على الضرم المتأجج والدخان المتكاثف ، فاستطعت أن أفهم ، ولم يعينى أن أدرك سحر النار وفتنة هولها ، وكان الذى تمثل لحاطرى وأنا أقرأ ذلك .. لارومية وبناها العالية وقصورها الضخمة بل « جليله » وقد ضربت النار عليها سرادقاً .

ولم تطلق المسكينة إلا صبيحة جزع واحدة ، ثم وقفت كالتثال ، وذهبت النار تأكل ما عليها من خفيف الثياب وتحيل جسمها الأسمر الطرى جمرة مضطربة .

وكنت واقفاً على سلم البدروم - مسمرأ هناك - وعينى عليها لا تتحول عنها ، وفي مسمعى من اللهب الخفاق الامعان مثل اللدمة والتدويم ، وفي أنفى رائحة اللحم المشوى وعلى وجهى صمد الحر .

وكان الوقت شتاء ، والبدروم يكون فى الصيف رطباً فكيف به فى زمهرير الشتاء . . وكانت جليله قد سبقت أمها إلى هذه الغرف التى تشبه القبور ، فشرعت تضرم الفحم - أو السن كما يسمى تراب الفحم - فى الموقد لتدفأ به ، ولم تكن عندها منفاخ تعجل به لإيقاد النار وكانت ترتعد وتنتفض من البرد ، وكان مصباح الغاز مضاء ، فتناولته وانحنى به على الموقد ورفعت غطاءه النحاسى الذى يتلذذ منه الشريط فى الغاز ولم تر أن

تنزع الزجاجاة وتطفيء الشريط قبل أن تصب الغاز على الفحم ، فسال منه شيء على ثوبها وهي لا تدري ، أعادت الغطاء إلى مكانه من المصباح ، ووضعتة إلى جانبها على الحصيرة وأشعلت عوداً وأدنته من البترول في الموقد فارتفع منه اللهب فجأة ، وكانت حازية عليه ، فردت وجهها بسرعة ، ونسيت أن تتناول المصباح وهي تنهض قائمة ، فانقلب المصباح واشتعل طرف الثوب الذي كان مسفساً بالبترول .

وليس هذا خيالاً أتخيله فقد رأيته كله بعيني ، وكنت قد غافلت أُمي وحليمة ، وانحدرت وراء جليمة ، وفي مأمولى أن أجالسها وألاعبها وأسامرها قليلاً ، فقد كنت مشغولاً بها ، وكانت هي تأنس بي وتهش لي ، ولا ترضى على بما تعلم - مما سددت أو رأت أو خطر لها . وكنت على عتبة الباب ، وكنت أهم بأن أضع قدمي على درجة السلم نازلاً إليها ، فرأيتها تمشي إلى « الصفة » وتعود بالمصباح في يدها ، وألمحت أن أقف حيث كنت - على العتبة - فلم يفتني شيء من الفاجعة .

وألقيتها تهوى إلى الأرض ، والنار حولها ، فأفقت وأرتددت راجعاً إلى ساحة البيت : ورحت أصبح ، وأزعق وأدعو من يسمع أن يدرك : جليمة فإنها تخرق . وسرى الخبر سريان النار في المشيم اليابس ، وكان أخي الأكبر في البيت ، فنزل مع النازلين ، ورأوا أن جليمة قد أكلتها النار ، فصار هم الجميع أن يطفئوا الحريق ، فقد امتد لسلن النار إلى الحصير والسريير وسائر مافي الغرفة .

وكنت بينهم ، أروح وأجىء إلى حيث أراهم يروحون ، ومن حيث يجيئون ، ولا أعزل شيئاً ، وكانوا مضطربين وكان لظلمهم كثيراً وعالياً ، وكان النساء يبكين ويولولن وفي أيديهن الطشوط والأباريق ، وأخى يتناولها منهن مترعة ويصب على النار ، ولا يفتأ يسأل عن « محمد » - « ابن الكلب » أين غطس في هذه الليلة السوداء ، ويتوعده بعقوبة ، ويقول

ليته كان هو الذى احترق ، وبقيت جليلة ، فتقول حليلة — عفى الله عنها « آه والنبي » . وترسل الصوت مجلجلا فى سكون الليل بالنواح على بنتها ، ولا تكف عن ذلك ، وعلى الرغم من الحرقات التى تعانيتها لا تتوانى عن ملء الطشوت وحملها إلى أخى .

ورآنى أخى كالكلب الذى لا يترك قومه ولا ينفك يجرى معهم ويطوف بهم ويدخل من بين سيقانهم ويربكهم وهو يريد أن يعرب بخفة حركته بينهم عن مشاركته لهم فيما هم فيه ، فزجرنى وطرمنى وأمرنى أن أصعد .

ولكنى لم أطع — نعم نأيت عن البدرى ، ولكنى بقيت فى فناء البيت وكيف أصعد إلى فوق . وكل من فى البيت قد ترك هذا الفوق إلى تحت . . وكيف أكون وحدى فى مأمن من المخاوف التى كظوا لى رأسى بصورها فيما كانوا يقصون على كلما أرادوا تنويعي . . كأنما كان خير ما ينم الطفل هو هذه المقزعات .

وجاء أبى : فقد دعى من البيت الصغير ورآنى فى الساحة وحدى ، فأقبل على يسألنى بصوته الهادئ المترن النبرات « أنت هنا » فبكيت . . كأنما فتح لى هذا السؤال منفساً فتفجر ما كان محتبساً فريت على كتنفى ، ومضى عنى إلى البدرى ، فألقى أهل البيت جميعاً جالسين على درجات السلم .

وكان لابد أن تأتى الشرطة ، وأن يجرى التحقيق ، وكانت النار قد أطفئت ، فذهب أبى إلى المكتب ولحق أخى بنا ، بعد أن غير ثيابه وهناك قصصت عليهما ما رأيت ، وكان الشرطى أخوف ما نخاف نحن الصغار ، بعد العفارىت والأمساخ ، وغير هذه ، وتلك من المزعجات . وكان الذى نعرفه هو أن المسكر عدو للود لخلق الله ، وأنه مجعول للقبض عليهم والزج بهم فى الخابىس ، وأن « الكركون » — كما كنا نسمى مركز الشرطة — ليس

أكثر ولا أقل من سجن فطيع ، وأن العاقل من يتقي أن يمر من أمامه ،
فشرع أبى يذهب عنى الروح ويطمئنى ، ويروضنى على السكون إلى لقاء
هؤلاء الشرطة وغيرهم ، ويفهمنى أنه ليس على أكثر من أن أرى لهم
ما رأيت ، ويؤكد لى أنى سأكون موضع عطفهم ، وأنى سألقى منهم كل
خير ، وأنه لن يصيبنى منهم سوء ، فنسيت وذهلت عن النار التى اشتوت
بها جليلة ، وعن فجيعتى فيها ، ولم أعد أفكر إلا فى هؤلاء الشرطة المخوفين
الذين سأقف أمامهم وأسأل وأجيب ..

مضت على هذه الحادثة أربعين عاما . ولكنى لأرى أثرها يمحى أو
يهت ، وليس أبغض لى ولا أقدر على أفزاعى وأطارة عقلى من النار ،
وبعضى شتاء بعد شتاء ، وتحتاج إلى أضرام النار فى الموقد للتدفئة فيسألنى
أهل البيت فأصيح بهم « يا خبر أسود ! لا لا لا .. حاذروا » وترتفع
قبل عيني جلياة « فى سرادق من اللهب الخفاق .. »

ويلحون على ويقولون أن البرد قارس ، فأروح اتفلسف وأقول لهم أنهم
بله ، وأنهم يضعفون أجسامهم بتعويلهم فى المقاومة على الثياب والنار ،
وأن قدرة أجسامهم على المقاومة تزيد إذا خففوا ولم يسرفوا فى التوقى ، ولم
يجعلوا معولهم فى التماس الدفء على شىء أجنبى منهم ، وأقول لهم أيضا
أنى أضعف منهم جميعاً ، وأنحف وأحوج إلى وسائل الوقاية ، ولكنى أحتمل
ما لا يحتملون . فلماذا .. لا سر هناك كل ما فى الأمر أنى لا أكثر من
الثياب ، ولا أتخذ المعاطف إذا وسعنى أن استغنى عنها ، ولا أستعين بالنار :
وأذكر لهم أنى كنت فى صدر أيامى ألف رأسى عند النوم فى فوطة كبيرة
وألبس ثياباً من الصوف حتى فى وقدة الصيف المحرقة ، فكنت لهذا طول
عمرى مزكوما ، وكان السعال لا يترك لى راحة فى ليل أو نهار ، ثم ضاق
صدرى ، وحزنت على نفسى وقلت : إذا كان هذا حالى فى شبابى ، فإذا
عسى أن أكون فى الكهولة والشيخوخة .. وكان هذا يسود الدنيا فى عيني
ويغرنى بالتشاؤم .

وكانت المرارة تقطر من قلبي على الورق، في شعري ونثري ، ويشت
فتمردت وقلت أنه لن يصيبني شر مما أعان ، فخففت ، وصرت إذا نمت
أخلع ثيابي جميعاً ولا أبقى منها إلا الكفاية للستر . أى الجلابية ليس إلا ،
وكان الأوان يسمح بذلك ، فقد كان الوقت صيفاً ، فلما جاءت مقدمة
الشتاء ، وسعني أن استغني عن الملابس الثقيلة التي اعتدت أن ألتخذها ،
ودخلنا في الشتاء فلم أشعر بحاجة إلى المعطف ، ولكن بقية من الحذر القديم
جعلتني أحرص على حملة ، ولكن على ذراعي ، عسى أن احتاج إليه
في الليل . وكنت إذا شعرت بهذه الحاجة ، أطل أدايعها وأقاومها ، وأرجئ
الالتجاء إلى المعطف والدخول فيه ، وأقول لنفسي « نصف ساعة آخر .
لن يقتلني نصف ساعة من البرد » ثم أرجئ الأمر مرة أخرى وهكذا ،
حتى أصبحت أحس أن المعطف حمل لا معنى له مادمت لا ألبسه ، فصرت
أتركه في البيت ، وأن لي الآن لمعطفًا ، ولكنه قديم .. قديم حتى لقد نسيت
من طول عمره متى فصلته ، وهو للزينة أكثر مما هو للمنفعة ، بل ليس
حتى للزينة ، فقد أكلت منه الفيران نحو شبر في شبر وخجلت أن أبعث به
إلى الرفاء ، ولم أر أن أكلف نفسي ثمن معطف جديد لا ضرورة إليه
فتركته ، وأمرى إلى الله ، وأمره إلى الفيران .

أما الشرطة فقد زابني الخوف الصبياني منهم . فما يسع من يشب عن
الطوق إلا أن يدرك أن الشرطة لا يملكون ضراً ولا نفعا ، وأن الأمر فيهم
إلى القانون وأنهم ليسوا أداة إرهاب — أو لا ينبغي أن يكونوها — بل أداة
حماية للناس . ولكنني مع ذلك أكره أن أدخل مركزاً من مراكز البوليس
وافتر من الحاجة إليهم وأحب أن أستغني عن الالتجاء إليهم ولقد سرقت
خادمة كانت عندي أشياء — أو هذا هو المرجح والذي تشير إليه القرائن
جميعاً — فقلت غفر الله لها ولا أخرجنا إلى البوليس ، وهنئنا لها ما أخذت
ولا عذبها الله به ، (فما هي بعد كل ما يقال فيها إلا مسكينة ،
وهل ينفعها ما حملت إلا قليلاً . وسينتهي بها الأمر إذا اعتادت ذلك ،

إلى الشقاء المحقق . فهي أحق بالعطف . وأولى بالرحمة ولو أنها لم تهرب بما حملت ، لحاولت أن أعالجها وأن أفاء بها إلى الخير ، ولكن الأمر خرج من يدي بقرارها ، فأفقه هو القصادر على إنقاذها من ذلك المآل المخيف الذي أتوقعه لها .

ولى بين رجالى البوليس معارف وأخوان أحبهم وأكبرهم ، ولكنى لا أحب أن أحتاج إليهم ، ولست أكره مجالسهم ، ولكنى أحس غضاظة حين أكون مع واحد من رجال « السلطة » وأحب أن يكون غيرى مثلى - لاسلطان لهم على خلق الله . ولعل هذا بقية من أثر الذشاة الأولى على أنى لست على يقين من هذا فقد تكون لهذا الشعور عال(أخرى خفية راجعة إلى آرائى ومزاجى .

- ٧ -

لا أعرف ما سر حبي للحى فى وجوه الناس ، غيرى ، ولكنى أعرف
 أتى مارأيت قط لحية طويلة تتدلى كالمخللة إلا نازعتنى نفسى أن أجعل لها من
 أصابعى مشطا . وقلما أرى الآن لحية تستحق أن أعبت بها ، فان الناس فى
 زماننا يخلقونها أو يقصونها ، ولا يرسلونها ، اكتفاء بالمظهر واستملاء به عن
 الحقيقة الخشنة أو الشائكة ولن تجد أحداً فى هذا الزمن يغضب إذا أحنى
 الحلاق له لحيته كما غضب شيخ من أصدقائنا كانت له لحية كثة منقوشة
 ذهب بها إلى برلين لبشرك فى تشييع جنازة زعيم من زعماء الترك قتل هناك .
 وقد احتفظ بحبته وقفطانه وعمامته فكان كل من يراه يتوهمه من أفتك البلاشفة
 وأخطر القوضيين . قالوا . فذهب به صديق له إلى دكان حلاق . وذهب
 صاحبه يتمشى على الرصيف حتى يقرع من هذا الأمر ، فما راعه إلا صياح
 وزعيق لا يكونان فى برلين إلا من مثل الشيخ ، فارتد إلى الدكان فألقى
 الشيخ واقفاً وسط الدكان والنوطة على صدره وهو يرسل الصوت مجلجلا
 بالعربية الفصحى ، والحلاق مبهور فسأله صاحبه عن الخبر فقال « خير .
 أنظر .. » وأشار إلى خده الأيمن فنظر صاحبه فإذا الغاية الكثيفة اللقاء قد
 ذهبت بقدرة قادر ، ولم يبق إلا وشم ، على حين بقيت الغاية على خده
 الأيسر هائجة كما كانت ، فلم يسمه إلا أن نضحك ، ثم عالجته حتى رده
 إلى الهلواء والسكينة وسأله (ماذا قلت للحلاق ..)

قال الشيخ . (أنه رطن لى ولكنى فهمت أنه يسألنى ماذا أبغى ، ولم أدر
 كيف أجيبه فأومأت إلى لحيتى وأشرت بىدى أن سوها - هه - أى بعض
 الشيء قليلا جداً ، ولكنه لم يفهم فأجرى فيها الماكينة فذهبت بمعظمها) .

وسأل الحلاق كيف حدث هذا الغلط فقال أنه سأله عما يريد أن يصنع بلحيته ويقصه منها فأشار الشيخ اليها وقال (هاف) أي النصف فهو لم يجز عليها ولم يجاوزها ما طلب .

كلا : لا يغضب أحد في هذه الأيام كما غضب صديقنا الشيخ ، إذا ما جاز المقص على لحيته ، فيندر أن أنعم بمنن لحيه حقيقية ، أو تناح لى فرصة للعبث بها وتمشيطها ، على أنه لا أسف ، فقد فزت من ذلك فى حدثائى بأكثر من نصيبي العادل ، وكان حسبي لحيه جدى . أفتل شعراتها أو أثنها . وأدسها فى أذنه فينتفض ويصيح بى ويطرذن فأذهب أعدو وأنا أكاد أموت من الضحك فلما مات جدى شعرت بأن خسارتى جسيمة ، وأنى فقدت مالا أرى عنه عوضا ، ولكن الله كان أرحم وأكرم من أن يطيل عذاب الحرمان ، فقد جاء أخو جدتى ليترينا ، فأسكناه وكنت أنا أشدهم إلحاحا عليه وتعلقا به ، وكان قهيرا فلحيته تبد أطول مما هى فى الحقيقة فتسلت بها أسابيع حتى كان يوم وكنا جلوسا على وسائد وحشايا مبعثرة على البساط وكان هو مطرقا والسبحة فى يديه ! وإذا به ينتفض قائما ويعلن إلينا عزمه على السفر . فاستغربنا وسألته جدتى :

« ماهذه المفاجأة ؟ »

فقال « الحقيقة يا حاجة أنى سمعت صوتا كصوت أبى يدعونى »

فزاد تعجبنا وقال أنى « أبوك ياخال .. أبوك يدعوك .. كيف تقول .. أين أنت من أبوك وبينكما ركوب خمس ساعات فى القطار ..

فقال « نعم يدعونى . لقد سمعت صوته واضحا جليا ينادى : يا عمر ولا بد لى من السفر فما أشك فى أن به حاجة إلى .. »

وأصبر على السفر ، وأبى أن يبقى ، فاستودعناه الله وأرسلنا معه « عم

محمد، بالحقية إلى المحطة وفي مساء اليوم التالى جاءتنا منه برقية ينعى إلنا فيها أباه أى جد أبى .

ومن تمام القصة أقول أنهم تحدثوا فيما بعد بأن هذا الجد كان راقداً ثم اعتدل فجأة وأطلقها صيحة قوية « يا عمر » ولم يزد .

وكان هذا الجد معلوداً من القوم الصالحين ، وكان يلبس عمامة— كما لا أحتاج أن أقول ، فان الصالحين لا يكونون على ما يظهر ، إلا من أصحاب العائم ولكن لفتها كانت خضراء ، لأنه شريف من نسل الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان السيد محمد هنا قويا ، وقد احتفظ بقوته حتى في شيخوخته العالية ، فقد جاوز التسعين أو قارب المائة . ولم يركب في حياته قطاراً ولا تراما ولا مركبة . وكان إذا زارنا في القاهرة يجر على قدميه ، وعلى كتفه الخرج الذى فى شق منه ثيابه ، وفى الشق الثانى هدية من القمر أو الحب « الحلوم » أو غير هذا وذلك مما يرى أن يهديه إلنا . وكان أبى قد رزق قبلى بولدين . ماتا . فلما جئت أنا إلى الدنيا ، خاف أبواى أن أموت أيضاً . وصارا يجزعان كلما أصابنى برد أو غيره . وأنى لهما أن يعلما الغيب وأن يعرفا أنى ممن قيل فيهم أن « عسر الشقى بقى » واففق أن جاء هذا الجد للمبروك فاستكتبوه لى حجابا ، فخطط شيئا فى ورقة ، أو كتب آيات من الكريم : لا أدرى وطواها وأمر بها أن تغلف ونهى عن فتحها : وقال علقوها له جنبه : فغلفوها فى قماش للتنجيد . أى لكسوة المراتب وبعثوا بها إلى حذاء : ولم يكن حذاء فى الحقيقة : وإنما كان رجلا يصنع المراكيب فجلد الحجاب ، وجعل له عينين للحيط : وعلقوه لى فصار كالحجر فيما أحس حين أرقد على جنبى :

ولم يفارقنى هذا الحجاب إلا بعد أن انتقلت جدتى إلى رحمة الله :

حتى بعد أن كبرت ودخلت في مداخل الرباط وتزوجت ، كانت تصر على لبسه . وكنت أغافلها وأخلعه وأدسه تحت الوسادة . فإذا عرفت ذلك نظرت إلى نظرة أسف وعتاب وإشفاق . وكان لبس الحجاب يثقل على نفسى وكنت أنفر من ذلك نفوراً شديداً . ولكنى كنت أقول لنفسى أن جدتى كبيرة السن وأنها فجعت في ابنها وأنها تجزع كلما خطر لها أنها قد تنفج في حقيدها الذى تنعزى به . فماذا على لو أرضيتها وسررتها وتركها تقضى ما بقى من عمرها في راحة واطمئنان . ثم أنى ما أحببت أحداً قط مقدار حبي لها ولأسمى فكنت أشعر أن قلبى تعصره يد قوية غليظة حين أرى على وجهها آيات الفزع . ومن أجل هذا استخرت الله وتوكلت عليه وتركها تفرح وتطمئن بالحجبات على جنبى . وكانت إذا رأته مقبلاً عليها لتحيتها كالعادة تبسم لى بقمها الأدرد ، وتمد يدها إلى جنبى لتتحسسه ، فأضحك وأقول « لا تخافى » أنه مازال في مكانه . وما أبقيه إلا لأنه يسرنى أن أراك راضية قريبة العين « فتمسح لى رأسى وتدعو لى بخير .

فلما ماتت ، تركت الحجاب . وكانت أسمى تقوم في أول الأمر مقامها في اللاحاح على أن أحتفظ به فقلت لها يوماً « ياستى . أنك عاقلة ، فيبنى لى لماذا يبنى أن ألبس هذا الحجاب » .

قالت : « أنه بركة من جدك » .

قلت : « صدقنا وآمنا . وأنعم بجدى وأعظم ببركته . ولكن ما جدوى أن أضع حجراً . »

فأطرقت فقلت : « أنا أعلم أنك تخجلين أن تقولى أنه يقينى السوء . ويحمينى من الموت لأنك أعقل وأذكى من ذلك . أليس الرب واحد والعمر واحد . أليس ما قدر يكون » .

قالت : « آمنت بالله »

قلت : « كنت أعلم أنك ستوافقين على اطراح هذا الحجاب . ولكنى أحب أن احتفظ به للذكرى فاحفظيه لى عندك » .

فأخذته ، وبقي عندها مصوناً حتى ماتت فقيل لى أنهم وجدوا حجاباً بين أشياءها . وسألونى ماذا يصنعون به .. فأوصيت به أن يحفظوه فانه أثر له تاريخه الطويل وصلته الوثيقة بأقوى العواطف الانسانية ففعلوا ، ولكنى لم أطلب أن أراه ، والحق أقول أنى لم أقو على النظر اليه يومئذ ، فقد كان موت هذه الأم الصالحة أوجع ما أصابنى فى حياتى وأعمقه أثراً فى نفسى ، ولقد أبيت إلا البقاء فى البيت الذى وافاها الأجل فيه ، لأن كل ما فيه يذكرنى بها ولكنى كدت أجن ، فقد كنت أتشدد وأظهر الجلد ، ولكنى كنت أراها فى كل مكان ، وأبصرها تروح وتجيء وأسمع صوتها ، فكأنها لم تمت وأن كان غيرى لايعرف ذلك ولا يقطن اليه ، وتلفت اعصابى فكانت هذه الخيالات تسرنى احياناً ، وحياناً أخرى تفزعنى فاضطرب وارتعد ، وثقلت على وطأة الهوامجس والوساوس وطال الأمر فلم أر علاجاً أحسم به هذا البلاء الا أن أفارق البيت ، وأنأى بنفعى عن مواطن الذكرى ومشارها على قدر الامكان ، وأقول على الامكان لأن المرء يستطيع أن يهرب من بيت أو بلد ولكن أنى له يهرب من نفسه .

- ٨ -

بعد وفاة جدى أدخلنى أبى المدرسة القريبة - لقرىها من حيناً ، وإمكان الوصول إليها بلا حاجة إلى قطع الشوارع التى يجرى فيها الترام « الجديد » والتعرض لاختطاره ، فقد كانت ضحاياه كثيرة فى تلك الأيام .

وكانت للمدرسة بوابتان - واحدة على شارع القرية - أى صانعى الخيام . وكانت رحيبة ولكنها عتيقة جداً . وقد بقيت بها أربع سنوات : ولا أذكر أن أحداً خطر له أن يجعل الأبواب الحجرات فيها مشابك ، فكان المعلم إذا أراد أن يترك الباب مفتوحاً ، يجرى بجحر يسند به الباب . ولكن كان للحجر منافع أخرى لبعض المعلمين وأخص بالذكر منهم شيخاً أعور كان يعلمنا « الخط » فإذا أساء أحدنا الكتابة أو تشاغل عنها بالكلام أو ضحك أو لعب ، أو فعل غير ذلك مما يفعل الصبيان ، ناداه الشيخ ودق له أصابعه بهذا الحجر .

ويكفى للتعريف بالمدرسة أن أقول أن ناظرها كان « وقتاً » عليها وكان الكبار منا يروون عنه أنه كان يقول عن نفسه أنه « جاهل جاهل » ، لكن أدارجى « - أى أداري . وأنصفه فأقول أنه كان وجلاً طيباً ، وأنه لم يسنّ قط إلى معلم أو تلميذ أو فراش - أى خادم - وقد أنعم عليه فى السنة التى دخلت فيها مدرسته ، برتبة بك من الدرجة الثالثة وهى لا تتحول لصاحبها لقب إلبك ولكنه فرح بها وانتحل اللقب وصار يغضب إذا لم يطلقه عليه مخاطبه : وقد جمعونا يومئذ صفوفاً فى ساحة المدرسة ، وأبلغونا خبر الأنعام على « سعادة البك » وهتفوا فهتفنا وراءهم

« أفندى مرشوك يشا » وهى عبارة تركية معناها الحرفى « يعيش أفندينا كثيراً أو طويلاً » .

وكان الناظر جازنا فهو يعرف أبى ، ولهذا كان يسمينى « ابن عبدالقادر » ولكنه كان أحنناً فكان ينطق الباء مما فيما يخيل إلينا . وكنت على صغرى قد فطنت إلى مواطن الضعف فى نفسه .

وأدركت أن « سعادة البك » مفتاح كل باب مغلق ، فلا يكاد يسعنى أقول له « ياسعادة البك » حتى يهش لى ويهز لى رأسه راضياً ويعفو عن ذنبى أو يجبرنى إلى ما أطلب . وكنت دقيق الجسم صغيرة جداً - وما زلت كذلك إلى اليوم - ولكنى كنت حركة دائمة فكنت لهذا لا أطيق الجلوس ساعة كاملة على تلك المقاعد الخشبية الناشفة . وكان قلقي واضطرابي يثقلان على الملبين فيضربوننى أو يشكوننى إلى الناظر فتعجبنى « سعادة البك » من العقاب .

وكان معلمنا فى السنة الأولى شيخاً قصيراً عظيم الوجه مغضنه جاحظ العينين واسعهما - وكان وجهه الضخم فيما يلدو لى - فى حجم صدره : وكان يعلمنا القراءة والكتابة والخط والحساب ويحفظنا القرآن . وكانت لنا ألواح من الخشب نكتب عليها الآيات الكريمة بالخبر ، ثم نعود بعد حفظها فننحوها بالأسفنج ونكتب غيرها . وهكذا . فجمع الشيخ منا ملايم اشترى بها « ماجورا » أخضرا كان يملؤه ماء لنغسل فيه الأسفنج ونمسح الألواح . وكانت أدراجنا ذكة كبيرة تسع سنة من الصبيان تتصل بها أدراج بعنهم . وكانت قديمة مفككة وقوائمها متخاذلة ولم يكن من النادر أن تقع بنا فتصايح ونضوضى ، فيخف إلينا الشيخ ويرى أن الذكة قد تفككت فيخرج ثم يعود بالمسامير يدقها فيثبت القوائم والأرجل فى مكانها من مقعد الذكة أو لوحها :

وكانت حجرتنا هذه تطل على حجرة المعلمين وكان كثيراً ما يتفق أن يكون الشيخ قد خرج من بيته على ريق النفس فينادى الفراش ويتناول قرشاً فيشترى فولاً مدمساً وزياً ورغيفاً ومخللاً . ويضع له ذلك كله على النافذة التي بين الحجرتين ويظل الشيخ متردداً بين طعامه ودرسه حتى يفرغ من الأكل . وكان ربما نطق وفمه محشو . فنضحك : فلا يبالي . فقد كان حليماً رحيماً لا يقسو علينا ولا يعنف بنا ، وأحياناً يادح الناظر مقبلاً من بعيد فيشير إلى أحدهنا وهو يحاول أن يبلغ اللقمة العظيمة ويتكلم في آن معا ، ويدرك الصبي مراده فيتخطى النافذة إلى حجرة المعلمين وينقل إليها ما بقي من طعام الشيخ ثم يرتد - وثباً من النافذة - إلى مقعده ويمر الناظر بسلام ، فيقول الشيخ لأحدهنا ، وهو يشير إلى النافذة « هات . هات . » .

وكانت ساحة المدرسة واسعة جداً ، فكنا في أوقات الفراغ نتبعثر فيها ونلعب ما بدا لنا أن نلعب - الكرة أو سواها - وكنا نتخذ الكرة من الجوارب القديمة أو من بذور « ثمر الدوم » وهو ثمر لبني قليل الحلاوة ولكن نواته عظيمة تصلح أن تكون كرة صغيرة نتقاذفها أو نضربها بأرجلنا :

أما فريق كرة القدم ، فكان شيئاً رهيباً : ذلك أن أعضائه جميعاً رجال كبار . وكان بعضهم لا يعد تلميذاً بالمدرسة إلا على الحجاز . وأذكر أن الناظر جمع من تلاميذ المدرسة نفقات التعليم لأحدهم ، وكان لاعبا مشهوراً ، وكان اسمه « سليمان » ولكننا كنا ندعوه « سالي مان » لأن وجهه كان أبيض مشرباً بالحمرة كوجوه الانجليز . وكان يدخن « البية » فقد كنا نراه إلا وهي بين شففيه ولا أدري ماذا كان مبلغ علمه بالانجليزية ، فقد كنت صغيراً . ولكنني أدري أنه كان يتكاف رطانة كرتانة الانجليز . وكان له زميل في فريق الكرة اسمه « أبو تيفه » - أي توفيق - وكنا نحن الصغار نسمع أنهما لا يعبان إلا إذا شربا خمرأ . فأما « سيلي مان »

فلا يبعد أن يكون هذا شأنه ولكنى لا أصدق أن « أبا تيفه » كان يفعل ذلك أى يسكر قبل اللعب ، فقد كان وديعاً كريم الشيم ، وهادئاً رزيناً : ولا نكران أن هذا لا ينفى الولوع بالشراب ، ولكنى لم أر الرجل قط - فقد كان رجلاً لا صديقاً مثلنا خارجاً عن طوره ، لا فى ساحة اللعب ولا فى المدرسة . وبعيد فيما أرى أن يكون مثله سكيراً .

وكانت للمدرسة عناية خاصة بطعام فريق الكرة ، فكانت مائدتهم سافلة مثقلة ، بل كانت المدرسة تشتري لهم « المخلل » فى سلطانيات صغيرة لتشجذ رغبتهم فى الطعام وكان عملها هذا يستدعى منها التساهل مع بقية اللاميد ، فكان كل من معه قرش منا يقف عند حاجز البوابة قبيل وقت الطعام وفى يده القرش أو الملاليم ويصيح بعم أحمد « الطرشجى » هكلدا « هات شوية بنكلة » أو بأكثر أو أقل ، فيناولها سلطانية فيها ما طلب فيرتد بها ، ويظل يحملها حتى يندق الجرس فيدخل بها حجرة الطعام ، ولم أر مثل هذا فى مدرسة أخرى من مدارس الحكومة .

- ٩ -

مرض أبى بعد شهور قليلة من دخولى مدرسة القرية الحكومية ، وصار كل من فى البيت يلغظ بأن زوجته التركية سمته ، أو هى لم تسمه ، وإنما دأبت على إطعامه لحم الأرنب بعد أن يعالجه رجل مشعوذ ، بما لا يعرف أحد ، ليحبب أبى فى هذه الزوجة ، ويغضض إليه أمى ، وكان أبى يعتقد أن هذه خرافات وأباطيل ، وأنها مما يلفقه الخيال بتأثير الخبرة ولكن أمى كان قد أصابها سقم شديد واضطراب عصبي عنيف فعنى أخنى الأكبر بما أشج من أن هذا بعض ما جره سحر المشعوذ عليها ، فراقب بيت هذه الزوجة التركية فرأى يوماً شيخاً يدخل ، فتبعه من حيث لا يشعر فصعد الشيخ إلى غرفة فوق السطح ، وأوقد ناراً ، وذبح أرنباً ، وكتب على لحمه كلاماً وعلقه فى الهواء ، ورمى فى الموقد بخوراً فأطلقه وراح يقرأ ويعزم ، وأخى يرقبه ، ثم خطر له أن يطلع أبى على ذلك فأغلق عليه الغرفة وأوصد باب البيت أيضاً وحل مفتاحه معه وذهب فجاء بأبى وأراه ما رأى فشق الأمر على أبى فطلق المرأة .

ولكنه مرض بعد ذلك لا أدرى بماذا ، ولزم البيت بضعة شهور كان الطبيب يعود فيه كل بضعة أيام مرة ، ولكنه كان فيما يبدو صريحاً معافى ، لا سقم به ، فقد كان يشرب القهوة على عادته ، ولا ينفك يدخن سجائره المألوفة ويأكل طعامه المعهود - السمك المسلوق والأرز والباكية - وكل ما تغير من أمره واختلف من حاله أنه كف عن النزول إلى المكتب . وأن الكاتب وأخى كانا يصعدان إليه بالأوراق فيطلع عليها ويشير بما يرى .

وعدت من المدرسة عصر يوم ، فلقيني الكاتب على الباب وسألني
 « أين عم محمد » فقلت لم أراه ، فأخبرني أنه ذهب ليحيى بي من المدرسة
 لأن أبي يريد أن يراني فيظهر أنه ذهب من طريق وعدت أنا من طريق :
 ودخلت البيت فألقيت في فئائه نقرأ من أقاربنا جلوسا على الكراسي
 فسلمت فقال أحدهم « أصعد . أصعد . أبوك يطلبك . »

فلم أفهم ، وصعدت على مهل ، ودخلت على أبي ، وأنا أنتظر أن
 أراه قاعداً على « الكنبه » فإذا به راقده على مرتبة مفروشة له في وسط
 الغرفة ، وعند رأسه مصحف ، فأدبرت عيني في الغرفة ، فألقيت النساء
 من أهلي قاعدات حول المرتبة ، مطرقات ، وفي أيديهن مناديل ، يرفعنها
 إلى عيونهن ويكنفكن بها الدموع ، فنظرت إلى أبي ، فأشار إلى بعينه
 فأنحيت عليه فقلني ، ونهضت ، وأنا غير فاهم وهمت بأن أدور وأخلع
 أثيابي ، وإذا بالنساء يصحن ويولولن ، وإذا بأبي تتناولني وتميل على
 رأسي وهي تقول « أبرك مات » .

أبي مات !

لم أفهم هنا ، ولم يحدث الخبر في ذهني صورة ما ، فقد رأيت أبي ،
 كما اعتدت أن أراه ، لم يتغير وجهه ، ولا نظره ، ولا ابتسامته ، ولم
 يختلف شيء سوى أنه راقده على مرتبة ، بدلا من السرير حتى بعد أن
 ولوث النساء ، رددت عيني إليه ، فرأيت ابتسامته مرتسمة على شفثيه
 وفي عيذه ، فثبتت طرفي إلى الباكيات النأحات ، ثم عدت أنظر إلى أبي
 فراغني أن الابتسامة ثابتة ، كأنها متحجرة ، وأن العين لا يريق فيها ولا
 ضوء ، وأنها كالزجاجة ، وأن المعنى الذي لمحتة لما أنحيت عليه ليقبلني
 قد خبا وانطفأ فبغت ولكن منظراً جديداً شملني وصرفني عما وقع في
 نفسي من هذا الموت العجيب فقد تشددت جملتي وتحاملت على نفسها ،

وركعت إلى جانب ابنها وأدنت أصابعها برفق من حينه فأطبقت عليهما
الجفون وثمّت جبينه ونهضت تشفق وتكاد تحتنق :

ولم يبق لي مقام بين هؤلاء الباقيات ، فأنحدرت إلى فناء البيت
حيث الرجال وكانوا ييكون ولكن في صمت ، ففي الوسع احتملهم ،
وضمّني أخى الأكبر وأجلسني إلى جانبه ويده على كفي والدموع تنهمر
من عينيه ، وأنا كالصنم وأذكر أني خجلت ، وحاولت أن أبكي ودعكت
عيني بأصابعي ولكن العبرة لم تسعفني ولم تنجلني وكنت لأزال غير فاهم
هذا الموت الذي أثار هذه الضجة الشديدة في بيتنا - فوق ونحت - وترك
النساء يطن والرجال يبكين مثل النساء .

ولا أطيل . أقيم المآتم واقتصر فيه على يوم واحد ، وكان مأتما ككل
المآتم فلا حاجة إلى كلام فيه ولكن أخى بعد انقضاء الأيام الثلاثة
صعد إلى حيث كانت أمي جالسة ، وأنبأها أن المآتم كلف خمسمائة جنيه
فدهشت ولم تصدق وقالت أن هذه ثروته ففي أي شيء أنفقها بل بددها
في يوم واحد ..

فناداني وكنت قريباً منهما أسمع وأرى ودفع إلى ورقة فيها أرقام
وقال : هذا ابنك يذهب إلى المدرسة ويعرف الحساب فليقل لك جملة
الأرقام ماذا تبلغ : . فجمعت الأرقام فإذا هي كما قال خمسمائة جنيه !
لا تنقص ملياً واحداً .

ولم يتغير شيء من حالنا في الشهرين التاليين سوى اختفاء أبي فقد
كان المال الذي تركه كثيراً ولكن أخى بعد ذلك طلق زوجته وسرحهما
وتزوج بجارة لنا كانت عينة عليها ولا شك واتخذ لها بيتاً مستقلاً
فاحتجنا أن ننقل إلى بيت صغير بعد انتفاء الحاجة إلى البيت الكبير

الذى كنا فيه فبدأت متاعبنا من ذلك اليوم فقد أهملنا أخى وبخل علينا بالمال وصار يقر علينا ويغلق على زوجته الحديدية حتى بدد كل ماترك أبى فى نحو ثمانية شهور .

وكان لجدي أرض وكانت أمى هى الوصية علينا فزور أخى توكيلا منها له وباع الأرض وبعثر ثمنها فيما كان يلهو به ونحن لانعلم فلما علمت أمى لم تصنع شيئا وقالت أنها لانستفيد شيئا من أن تنزل به ما يستحق .

وجاء يوم خلا فيه البيت من الطعام واللبن والسكر والسمن فلو جاءنا ضيف لكانت فضيحة وكنت واقفا على عتبة الباب أنظر إلى صبيان الحارة وهم يلعبون فرحين مسرورين لا يكرههم شيء ولا ينكرون في بن أوسكر ينقصهم ، وإذا بشيخ فاضل من زملاء أبى فى الأزهر مقبل على فقزعت وهممت بأن أتوارى عنه عسى أن لا يرانى فيمضى فى سبيله ولكنه لجنى فنادانى ، وقبلنى وقال « ستك الحاجة كيف حالها » قلت « بخير ولك الشكر » قال إصعد إليها وقبل لى يدها وقل لها إنى أريد أن أقابلها .

ولم يكن فى هذا غرابة ، فقد كان أيام الدراسة ملازما لجدي ، وكان ربما أقام فى بيتنا - مع أبى - الأسبوع والأسبوعين . وكانت جدتي تعده كابنها ، ولكنى أشفقت من زيارته ، فما فى البيت شيء يقدم لضيف كريم مثله ، فإذا نقول له . وبأى شيء نعتذر .

ولم أر لى حيلة فأنبأت أمى وجلتى ، ثم انحدرت إليه وصعدت به فجلس يحدث جدتى وأنا واقف وظهرى إلى الحائط ، وعقلى شارد وإذا بى أسمعته يقول أنه كان قد خطف من أبى مبلغا آخر ، فثالثا فرابعا ليشتري بذلك أرضا لنا ، ولكن الأجل وافى أبى . فبقى المبلغ معه ،

ولا علم لغير الله بذلك وقد خاف الشيخ أن يتزل به قضاء الله فيضيع
مالنا ، فهو يريد أن يبرىء ذمته ويرده إلينا .

وقد كانت هذه بداية الفرح ، فقد وسعنا بعد ذلك أن نعيش بهذا
المبلغ وتيسر الاتفاق على تعليمنا ، والفضل لله ثم لهذا الشيخ الكريم ،
وإنصافاً له ، واعترافاً بفضله ، أقول أنه المرحوم الشيخ إبراهيم بصيلة
من كبار العلماء رحمه الله وجزاه عنا خير الجزاء فواسع أحدا منا في
حياته أن يرد له ذرة من هذا الجميل الذي لن ننساه ولا ننجدده :

- ١٠ -

انطلقنا من اليسر إلى العسر ، ومن السعة إلى الضيق ، واستغنينا عن « عم محمد » وامراته « حليمة » .. أو استغنينا همّا عنا ، سيان ، فما كنا خادمين ، وإنما كانا منا فيما نحس ونعلم ، وأحكمنا تدبير أمورنا في حدود المورد الذي أسعفنا به حسن الحظ ، وزايلنا الشعور الأول بالسخط والألم ، وألفنا حياتنا الجديدة وإن كانت حافلة بضروب الحرمان مما كنا نتمتع به في حياة أبي ، وكل شيء في الدنيا عادة ، حتى التسك والعبادة ، كما يقول النواصي ، من قصيدة في ابن الربيع :

أنت يا ابن الربيع علمتني التسك

وعودته ، والخير عادة

ومضت الأيام ، وانتظمت الأمور واستقرت الأحوال بعد القلق والاضطراب ، وكانت نفقات التعليم ، على ضآلتها ، فقد كانت ستة جنيهاً في العام أثقل ما نضطر إلى الاحتياط له وتدبيره وفي وسع الذاريء أن يتصور حياة من تثقل عليه ستة جنيهاً في العام . فجاءنا يوماً قريب لنا ، واقترح علينا أن نطلب من الوزارة أن تعفينا من نفقات التعليم ، فاستحسننا ذلك وقلنا عسى ولعل ، وشرعنا نعيّن الوجوه التي ينبغي أن نحول إليها ما كان يأخذه التعليم . وكذب قريب الطالب وأراذله فقرأته على أمي فسرتهما عبارته وما فيها من القصد والترفع عن الاستجداء والضراعة ، قالت حسبنا التعليم بالهجان مثله :

وغاب قريبتنا أياماً ثم جاءنا نبأ قال « يا سبي » .

قالت أمي « نعم . خير إن شاء الله » .

قال : « الغاية تبرر الوسطة »

قلت « يعنى » .

قال « إن هذا الطلب لا يرجى أن يجاب إلا إذا عززناه بقرشين »
فصاحت به « إيه .. هل تريد أن تقول أن فلاناً - تعنى ناظر المدرس -
يطلب رشوة .. »

فقلت أمى معترضة « إذا كنا سنرشو الناس ، ونحن فقراء ، فأولى
أن نؤدى نفقات المدرسة ونستريح ونعفى ضيائنا من هذا الإثم »

قال « ولكن الإعفاء سيظل طول مدة التعليم »

قلت « ولو »

فانصرف قريبنا ساخطاً على هذا العناد متعجباً لهذا التحرج الذى لا موجب
له فى رأيه ، ولكنه لم يقنط ، فأعاد الكرة مرة أخرى ، حتى كرهت
إلحاحه وآثرت أن تريح نفسها من لجأته ، فأثقت أربعه جنيهاً زعم
أنه سيفرقها على رجلين .

ومر شهر ، ودنا موعد افتتاح المدارس ونحن كل بضعة أيام نسأل
قربينا عن الطلب ماذا صنع الله به ، وهو يقول أنه يتعقبه فى كل مرحلة
من مراحل ، ثم فأجنا يوماً بالبشرى ، فقرحت جدتى واغتمت أمى ،
واضطربت أنا فلم أعد أدري أينبغى لى أن أفرح كجدتى أم أحزن كأمى .

وفتحت المدارس ، فأهملنا أن نعد مقدار القسط الأول ، وهو جنيهان
وجاءنا قريبنا يقول أنه أخطأ ، وأن الوزارة انما قبلت أن أتعلم « بنصف
مصروفات » فقلت أمى بعد انصرافه « ضيعنا أربعة جنيهاً وارتركنا انما
لنقتصد ثلاثة جنيهاً » وفاولتى جنبها - قيمة نصف القسط الأول -
وقالت : اذهب به إلى المدرسة والأمر لله .

فذهبت إلى المدرسة وفي جيبى الجنيه - ولكن الله ألهمنى ألا أذهب إلى
كاتب المدرسة فاستأذنت على الناظر وقدمت له الجنيه فسألنى وهو ينظر إليه
وللى « ما هذا يا بنى » .

قلت « جنيه » .

قال « ظاهر ، ولكن لماذا تعطينيه » .

قلت « إن فلانا قريينا أخبرنا أن الوزارة قبلت أن أتعلم بنصف المصروفات
فهذا هو القسط الأول » .

وكان الرجل رقيق القلب عظيم الحنان ، وكانت بيته وبين أبى صداقة
فرايت الدمع يترقرق فى عينيه وهو يقول .

— « أنا آسف يا بنى ، لقد رفضت الوزارة الطلب ، والله ما قصرت
فى السعى لك ولكن هذا ما كان » .

فشكرته وأعدت الجنيه إلى جيبى ، ورجعت به وبالجبر ، آخر النهار
إلى أمى .

ودفعنا القسط كاملا :

وسألت أمى قريينا عن الحقيقة فاعترف لها بأنه كذب عليها وأنه أخذ
الجنيهات الأربعة لنفسه ، ووعد أن يردّها عند الميسرة ، وقد ماتت وهى
فى ذمته .

وقلت لى أمى يوما « لست آسفة إلا على خديعتنا ، وما أثمرته من
زيادة الضيق الذى كنا فيه ، أما التعليم فأتى أحمد الله الذى مكّننى من أداء
نفقاته فى مراحلها كلها ، فما كن يدرنى أن تشعر أنك دون أندادك ،
ولأنك رقيق الحال ، وهم فى سعة ، وكنت أخشى أثر هذا فى نفسك فالحمد
لله الذى حمك هذا الشعور » .

وأخذت الشهادة الابتدائية فقالت أمي « تذهب إلى المدرسة الخديوية
وتقدم إليها طلب التحاق بها » ولكن أخي وقربي الذي أسلفت ذكره جاء
ليقننا أمي بأن تقبل توظيفي فاستغربت وقالت : « ولكنه طفل » .

قال قربي « ان نفقات التعليم الثانوي كبيرة فمن أين تجبين بها » .
وعزز أخي رأيه . وألح الإثنان عليها إلحاحاً شديداً وهي تأتي وتقول
أنها لا ترضى بذلك ، وأن ابنها يجب أن يتعلم ، وأن أوان التوظيف
وكسب الرزق لا يزال بعيداً فاعلظت أخي لها في الكلام وعنف معها قربي
فطردتهما وأمضت مشيتها وأدخلتني المدرسة . وقد بقيا زمنا غير قصير
لا يتجرفان على دخول بيتنا ، ولكنها كانت تبعث بي إليهما لأزورهما ،
وتوصيني ألا أقطعهما ، وتقول انه خلاف أدى إلى جفوة بيننا وبينهما ،
وقد فعلت ما تريد وقوامها الله عليه فلا مسوغ لبقاء النبوة ولا موجب لها
على كل حال فيما بيني أنا وبينهما ، وهي لا تضرهما بغضا ، ولكنها تخاف
لعبهما ودخولهما مرة أخرى فيما لا يعنيهما ، فخير لي أن يبقيا بعيدين حتى
أفرغ من التعليم .

واعترضت الحمى طريقي في السنة الأخيرة من التعليم الثانوي وكادت
تضيئني بل تقتلني . وكان قريب لنا من الأطباء يتولى علاجي ، ولكن
العلاج لم يكن يبدو له أثر فقضيت الصيف كله أوجله راقداً لا أكاد أحي
شيئاً ، من شدة الحمى .

وفي إحدى الليالي ثقلت على وطأة المرض جداً ، حتى جزعت أمي
على ما أخبرني بعد ذلك ، وكادت توقن أني هامة اليوم أو الغد ، لولا
أن الأم لا تفقد أملها ، وكنا في بيت كل غرفة فيه تصلح أن تكون
ساحة أو ملعباً ، وكانت نوافذ الحجرة التي أرقد فيها تطل على فناء البيت
وفيه شجرة جميز عظيمة ، تصل أغصانها اللاهبة في الهواء إلى النوافذ ، وكنا

نضع قليل الماء على أحد هذه الشاييك لتبرد ، فحدث أن ملت أمي يدها إلى قلة تريد أن تشرب ، ، فقلت القلة من بين أصابعها وهوت إلى أرض الفناء ففزعت أمي واضطربت جداً ، وكبر ظنها أن هذا نذير بموتى ، وخطر لها أن تنحدر إلى الفناء في فحمة الليل ترى أسلمت القلة أم نخطمت .

وكانت لا تشك في أنها تكسرت فإ يعقل أن تقع من أعلى طبقة في البيت وأن تنجو من التهم ، ولكنها نزلت مع ذلك ، لأن القلة لم تكن عندها في تلك اللحظة إلا رمزاً ، وكانت سلامة القلة معناها البشرى بنجاتى .

ومن العجائب أن القلة لم يصبها سوء ولعل ذلك لأنها وقعت على أرض رخوة طربة كثيرة البلل تحت ظل الشجرة ، أولاً أدري كيف أعلل هذه النجاة من العطب الذى كان ينبغي أن يكون محققاً .

ولقد حدثتني أمي بعد ذلك بزمان طويل وهى تروى لى هذه القصة ، أنها بكّت ، وأنها عجزت عن القيام ، فظلت قاعدة على الأرض غير عابثة بالبلل والرطوبة والوحل ، وفى يدها القلة والدموع تهموم من عينها دموع الأمل والاستبشار .

وقضت ساعة فيما تحس ، ثم نهضت فصعدت ، ودنت منى وأنا نائم ، ولمست وجهى بكنها ، مترفقه معاذرة ، مخافة أن نوقظنى ، فإذا أنا أتصيب هرقاً ، وإذا بشيائى كلها — كما قالت — عصرة .

وأصبحت وقد ذهبت عنى وقلة الحسى وأخذت أتماثل : .

- ١١ -

ذكریات مدرسية

سأقتصر في هذا الفصل على طائفة من الذكريات تجربتها من عهد كنت فيه تلميذاً وعهد تال كنت فيه مدرساً .

وسأكتفي بالمعالم الكبرى والخطوط الرئيسية التي تغني عن التفاصيل ولست أرمى إلى غاية من هذا التصوير سوى ما يمكن أن يستفاد من مقابلة عهد بعهد ومواجهة ماضٍ بحاضر . فثلاً يمكن بسهولة أن تصوروا حال التعليم الابتدائي إذا قلت أن تلميذاً كان معنا في المدرسة ذل الشهادة الابتدائية فعين في السنة التالية مدرساً لنا في السنة الرابعة التي تعد لنيل الشهادة الابتدائية ، وأبلغ من هذا في الدلالة أنه كان يدرس لنا ما كان يسمى « الأشياء » وهي عبارة عن معارف عامة وكان تدريسها يومئذ باللغة الإنجليزية . وارسم لي خطأ آخرتهم به الصورة فأقول ما قلت في فصل آخر إن ناظرنا كان يقول عن نفسه أنه جاهل جاهل ولكنه إداري .

والآن انتقل إلى طائفة أخرى من الصور للمدارس الثانوية :

كان التعليم الثانوي آنقلاً بأدق المعاني فقد صار كل ما في المدرسة انجليزياً — الناظر والمدرسون والتعليم — ما عدا اللغة العربية .

وأنا إلى هذه اللحظة لا أعرف كيف كنت أنجح في الامتحانات ، وأكبر ظني أنهم كانوا يترفقون بنا ويعطفون علينا ، ويتساهلون معنا ، ويتركوننا

ننجح على سبيل الاستثناء . وأدع غبري وأقتصر على نفسي فإني أعرف بها ، فأقول إني ما استطعت قط أن أفهم علوم الرياضة ، أو أن أقدر فيها على شيء ، ومع ذلك كنت أنتقل من سنة إلى أخرى بلا عائق . وكان الأساتذة يخلفون ففهم اللفظ ومنهم الرقيق . وأذكر أن أحدهم كان يذكّرني درسه بالكتاب الذي حفظت فيه القرآن الكريم فقد كان يملئ درس الجغرافيا ، فإذا كان الدرس التالي طالبنا به محفوظاً عن ظهر قلب ، وكان يقف أمامه التلميذان والثلاثة دفعه واحدة وعلى مكتبه الكراسي والتلاميذ يتلون وهو يسمع ، ثم يضع في كل ركن واحد من الحافظين ليمتحن زملاءه . وكنت لا أستطيع أن أحفظ شيئاً عن ظهر قلب فكنت أحبس بعد كل درس في الجغرافيا حتى كرهتها وكرهت حياتي كلها بسببها .

وكان لنا مدرس آخر من أطرف خلق الله وأرقهم حاشية وأعفهم لفظاً ، فكان إذا ساءه من أحدنا أمر وأراد أن يوبخه قال له . تهج كلمة بليد مثلاً أو مجنون أو غير ذلك كراهة منه لإسناد الوصف إلى التلميذ مباشرة . ولم يكن تدريس اللغة العربية خيراً من تدريسها في الوقت الحاضر ولكننا كنا أقوى فيها من تلاميذ هذا الزمان ، لا أدري لماذا . وكان المفتش الأول للغة العربية المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، وكان من أعلم خلق الله بها وبالصرف على الخصوص وكان رجلاً طيباً ووقوراً مهيباً ، فكان إذا دخل علينا يسرع المدرس إليه فيقبل يده فيدعو له الشيخ ولا نستغرب نحن شيئاً من ذلك بل تراه أمراً طبيعياً جداً .

واعتقد أن منظر أساتذتنا وهم يقبلون يد الشيخ حمزة كان من أهم ما أغرس في نفوسنا حب معلمينا وتوقيرهم ، فإني أراني إلى هذه الساعة أشعر بحنين إلى هؤلاء المعلمين ولا يسعني إلا أكبارهم حين التقي بواحد منهم وإن كنت لم أستفد منهم شيئاً يستحق الذكر . ومن لطائف الشيخ حمزه

أنه كان يقول ملاحظاته على المعلم على مسمع منا : ولكنه كان لا يكتب في تقريره إلى الوزارة إلا خيراً . وقد اتفق لى بعد أن تخرجت من مدرسة المعلمين وعينت مدرساً في المدرسة السعيدية الثانوية أن جاء الشيخ حمزة للتفتيش فاعتنمت هذه الفرصة وقلت : « يا أستاذ » ما هو الاسم العربي لهذا اللخان والتبغ تارة أخرى ؟ . « فقال : انتظرني ياسيدى حتى أنظر في « الكناشة » وأخرج مما يلي صدره تحت القفطان كراسة ضخمة لا أدرى كيف كانت مخبئة غير بادية وقلب فيها ثم أنشد هذا البيت :

كأنما حشحتوا حصا قواده

أو أم خشف بلدى شت وطباق

ومضى غنى . وفكرت أنا في كلمة الطباق التي جاءني بها الشيخ ، فاستحسنتها ورأيت أنها على العموم خير من كلمة تبغ نعرب بها اللفظ الإنجليزي أو الفرنسي « توباك أو توباكو » .

ومن حوادث الشيخ حمزة معي أني كنت أؤدي الامتحان الشفوي في الشهادة الثانوية وكان هورئيساً للجان اللغة العربية ، فلما جاء دورى اتفق أنه كان موجوداً ، فلما انتهت المطالعة وجاء دور المحفوظات وكان لها مقرر مخصوص سألتني ماذا أحفظ . وكنت في صباح ذلك اليوم قد قرأت خطبة قصيرة للنبي ﷺ فعلمت بذهني وألهمني الله أن أقول إنى أحفظ خطبة للنبي . وفرح الشيخ جداً وخلع حذاءه وصاح « قل يا شاطر الله يفتح عليك » وسرني الله فلم أخطيء ، فاكتفى الشيخ بهذا وأعفاني من النحو والصرف والإعراب .

ولكنه في مرة أخرى كاد يضيع على سنة . وكنت طالبا في مدرسة المعلمين وكانت لجنة الامتحان في اللغة العربية برياسته فقال أحد أنخواني بعد خروجه من الامتحان : إن الشيخ حمزة يفتح كتاب النحو والصرف ويطلب من الطالب أن يتلو الفصل الذي يقع عليه الاختيار ، ولم تكن ندرس نحو أو صرفا في المدرسة لأن الدراسة كانت مقصورة على الأدب فأيقنا بالفشل وجاء دوري فدخلت وأنا واثق من الرسوب وجلست أمامه وناولني كتاب مقدمة ابن خلدون فقرأت ، ولا أزال أذكر فاتحة الكلام وهي « أعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها » الخ . فقال : ضع الكتاب . فوضعت ، فسألني عن العدوان والفعلين عدا واعتدى وانتقلنا إلى الصيغ المختلفة التي يكون عليها الفعل « واعتدى » مثل « اعتديا » للماضي المثني « واعتديا » للأمر ، فسألني لماذا كان الماضي بالفتح والأمر بالكسر فلم أعرف لهذا سبباً وقلت أنه لا سبب هناك سوى أن العرب نطقوا بهما هكذا ، فدهش لهذا الجواب وقال : « ولكن لهذا سبباً » ، قلت « إن اللغة سبقت النحو والصرف ، وكل هذه القواعد موضوعة بعدها ، وما دمت أنطق كما كان العرب يفعلون فإن هذا يكفي ولا داعي للبحث عن سبب مخلق » . فغضب وظهر هذا على وجهه فلم أبال بغضبه وحدثت نفسي أنه خير لي وأكرم أن أسقط بخناقة من أن تكون علة سقوطي الجهل . وأصررت على رأيي وكاد يحدث مالا يحمد ، لولا أن المرحوم الشيخ شاويش - وكان عضوا في اللجنة - تدارك الأمر ، فقد نظر في ساعته ثم ألتفت إلى الشيخ حمزة وقال « العصر وجب يا مولانا » فنهض الشيخ وهو يقول « أي نعم » وذهب للصلاة ونسيتي فكان في هذا نجاتي . وقد حفظت هذا الجميل لاشيخ شاويش ، وكانت هذه الحادثة بداية علاقتي به .

ولم تكن المواد كثيرة أو طويلة في مدرسة المعلمين . ويكفى أن أقول أنه كانت لنا في الأسبوع ثمانى ساعات لانتلقى فيها أى درس ، فترك هذا التخفيف وقتاً كافياً للمطالعة الخاصة .. وكان أساتذتنا وناظرنا يشجعونا عليها بكل وسيلة ولا يفوتهم مع التشجيع والحث أن يوجهونا وينظموا لنا الأمر ، وأحسب أن هذا نفعنا جداً .

وقد صرت معلماً بعد ذلك وظللت أشتغل بالتعليم عشرين سنين ، خمس منها في الوزارة وخمس في المدارس الحرة ، وفي هذه السنوات العشر لم أحتج أن أعاقب تلميذاً أو أوبخه أو أقول له كلمة نابية . ولم يقصر التلاميذ في محاولة المعاكسة ولكنى كنت حديث عهد بالتلمذة وبشقاوة التلاميذ ، فكنت أعرف كيف أقع هذه الرغبة الطبيعية في الشقاوة ، وكانت طريقتى أن أتجاوز عن الذى لا ضير منه فلا أشغل به نفسى . والتلاميذ مثال ذلك أن يحتاج التلميذ إلى قلم أو نشافة فيطلبها من جاره ويكلمه في ذلك فلا أعد هذا الكلام الذى لا يباح ، ولا أقيم ضجة من أجله وقد حدث يوماً وأنا مدرس في المدرسة الخديوية أن دخلت فرقة فالتفت على مكتبي كل أدوات الرياضة مرصوفة على نحو لاشك أنه متعمد وكان تلاميذى لا يجهلون كرهى للرياضة ، وكنت أنا لا أكرمهم أنى أعد نفسى جاهلاً بها حماراً في علومها ، وكان غرضهم من رص هذه الأدوات أن يعابثونى عسى أن أثير الضجة التى يشتهونها ولا يفوزون منى بها ولكنى لم أفعل بل اكتفيت بأن دعوت الفراش فحمل هذه الأدوات ووضعها في مكانها ثم بدأ الدرس . واتفق يوماً آخر أن دخلت الفصل فإذا رائحة كريهة لا تطاق ، وكان الوقت صيفاً والجو حاراً جلداً فضايف الحر شعورى بالتنغيص من هذه الرائحة الثقيلة . وأدركت أنها

هي المادة التي كنا ونحن تلاميذ نضعها في الدواة مع الحبر فتكون لها هذه الرائحة المزعجة . فقلت لنفسى أنهم ثلاثون أو أربعون وأنا واحد وإذا كانت الرائحة القبيحة تغشى نفسى فإنها تغشى نفوسهم معى أيضا . فحالهم ليس خيراً من حالى ، والإحساس المتعب الذى أعانيه ليس قاصراً على ولا أنا منفرد به ، وأنهم الأغبياء لأنهم أشركوا أنفسهم معى وقد أرادوا أن يفردوني بهذه المحنة : والفوز في هذه الحالة خليف أن يكون لمن هو أقدر على الصبر والاحتمال . فتجاهلت الأمر وصرت أغلق النوافذ واحدة بعد أخرى لأزيد شعورهم بالضيق والكرب فلا يعودوا إل مثاها بعد ذلك ، وقد كان . تصبرت وتشددت ودعوت الله في سرى أن يقوينى على الاحتمال ، ومضيت في الدرس بنشاط وهمة لأشغل نفسى عما أعانى من كرب هذه الرائحة الملعونة . وكنت أرى في وجوههم أمارات الجهد الذى يكابدونه من التجلد مثلى فأسر واغبط وازداد نشاطاً في الدرس وأعضاءهم عن يرفعون أصابعهم ليستأذنوا في الكلام فتد كنت عارفاً أنهم إنما يريدون أن يستأذنوا في فتح النوافذ عسى أن تخف الرائحة ويلطف وقعها .

وظللنا على هذا الحال نصف ساعة كادت أرواحنا فيها تزهق ، ورأيت أن الطاقة الإنسانية لا يسعها أكثر من ذلك ، وأن التلاميذ خليقون أن يتمردوا إذا أصروا على عنادى المكتوم ، واغتنتم فرصة اصبع مرفوعة وسألت صاحبها عما يريد ، فقال أنه يريد أن يفتح النافذة لأن الحر شديد ، قلت افتحها ، وفتحت النوافذ كلها : وتشهدنا جميعاً واستأنفنا الدرس ولكن بفتور لشدة ما قامينا من رياضة النفس على احتمال مالا يطاق . وانتهى الدرس وخرجت فخرج ورأى ثلاثة أو أربعة من التلاميذ ولحقوا بى ، وقال لى واحد منهم أنهم يأسفون لما حصل وأن الأمر كان مقصوداً به

غيرى ، وأنهم يطلبون الصفح ، فسررت ولكنى تجاهلت وسألتهم عما يعنون . قالوا . الرائحة الكريهة التى كانت فى الفصل . قلت « رائحة . أى رائحة . . لانى مذكوم ولهذا لم أشم شيئاً فلا محل لاعتذاركم » ومضيت عنهم ، وكان هذا درساً نافعاً لهم ولو أنى عاقبت أحداً لما أثمر العقاب إلا رضاهم عن نفوسهم لأنهم استطاعوا أن ينفصوا على ، وأن ينجح معي عيهم الطبيعى فى مثل سنهم .

وفى آخر سنة من اشتغالى بالتدريس توليت أمر مدرسة ثانوية فقلت للأساتذة : لانى ألغيت العقوبات جميعاً فلا حبس ولا عيش حاف ولا شيء مما اعتاد المعلمون أن يعاقبوا به التلاميذ .

ونظرتى هى أن المدرس الذى يحتاج إلى معاقبة تلميذه لا يصلح لهذه المهنة وخير له أن يشتغل بغيرها وأن العلاقة بين المعلم وتلميذه ينبغى أن تقوم على المودة والاحترام ، وأن يكون أكبر وأقوى عامل فيها هو شعور التلميذ بأن المدرس والد له يبنى له الخير ويخدمه ويفتح له نفسه ويقوي مداركه وينسى استعدادده ، وأنه لا يلزمه بدرس ولا يفرض عليه شيئاً بل يرغبه فى الدرس ويحبب إليه التحصيل .

وعلى هذا فليس لأحد من المعلمين أن ينتظر منى معونة على ضبط النظام ، وقد كان . قضينا فى هذه المدرسة سنة كاملة لم يشعر فيها التلاميذ بسلطان أو سطوة ، وإنما شعروا أنهم أبناء لنا وأئنا إخوان كبار لهم وأصدقاء نافعون .

ولم أكف بهذا بل ألغيت « الجرس » الذى يدق إيدانا بابتداء الدرس أو انتهائه لأنى لم أر حاجة إليه بعد أن أصبح التلاميذ يحرسون على الحضور

والمواظبة من تلقاء أنفسهم وبدافع من حبهم للمدرسة ورغبتهم في الوجود بها مع إخوانهم المدرسين حتى لقد كان الواحد منهم يمرض فيحضر ، وبهذا استغنيت أيضاً عن الدفاتر الكثيرة التي تستعمل في المدارس والتي تحتاج إلى موظفين كثيرين لاداعي لهم .

وقد كنت أحب أن أظل في هذه المدرسة لأرى نتيجة التجربة ، ولكن الحركة الوطنية بدأت في صيف ذلك العام وجرفنا جميعاً تيارها الزاخر فهجرت التعليم إلى الصحافة .

ولو عدت إليه الآن لكان من المحقق أن أخفق فقد اختل الحال جداً وانقلبت الأوضاع .

- ١٢ -

كان عزائي في تلك الأيام قول القائلة :

« راح يبغى نجوة من هـلاك فهلك
والمنـ ايا رصـد للفتى حيث سـلك
كل شيء قاتل حين تلقى أجـلك »

أى والله ! فقد تبينت أن مصر توشك أن تثور ، فقلت أعفى أهلى من المتاعب التى تجر إليها الثورات واضطراب جبل الأمور ، فحملتهم إلى بيت جدى - لأمى - « على حدود الأبد » ، وأصلحت فيه شقة اتخذتها لنا ، ومضت شهور والثورة لا تقوم ، حتى خلجنى الشك فى صحة رأى ، وكادت فتقنى بقومى تذهب ، وكنت فى تلك الأيام أعانى أشد البرح ، فقد كان عملى فى قلب العاصمة ، وبيتى فى الصحراء ، والمسافة بينهما أكثر من عشرة كيلو مترات أقطع نصفها وزيادة على قدمى غاديا رائحا كل يوم ، ومعى ما يكفى لغدائى ، فإنى أكره طعام السوق ، وكتاب أقرأ فيه فى فترات الراحة من العمل ، فلما هبت الأمة زاد العناء واشتد البرح ، فقد بطل العمل . وخرج التلاميذ إلى الشوارع مواكب مواكب وكانوا يعتقلون بالمشات ، ويحشرون فى كل مكان يخطر على البال ، حتى فى مسجد محمد على بالقلعة ، وكان الناجون من تلاميذى يرتلون إلى فى المدرسة التى كنت ناظرها يومئذ ، ويقصون على ما جرى ، ويذكرون لى أسماء المعتقلين من زملائهم ، ومكان اعتقالهم ، وكانت العلاقة بينى وبين تلاميذى علاقة أخ كبير بإخوة صغار ، فكانوا لهذا لا يكتموننى شيئا ، ولا يحجمون

عن مصارحتى بما يدور في نفوسهم ، وما تضطرب به صلورهم ، ولا يترددون في مشاورتي حتى في أخص الأمور الشخصية ، فكنا نعقد كل يوم اجتماعاً لتدبير ما يمكن تدبيره من وسائل الراحة لإخواننا الصغار المعتقلين من أبناء مدرستنا وكانت عقدة العقد أن المال لدينا قليل ، وأن الوصول إلى المعتقلين عسير ، فكيف نبعث إليهم ما عسى أن تكون بهم حاجة إليه من طعام أو ثياب أو فراش .

ومن حسن الحظ أن الوقت كان صيفاً ، ففي الوسع الاستغناء عن الأغطية واحتمال النوم على الأرض ، فبقي الطعام والثياب ، ويطيب لي أن أروى أن بعض التلاميذ كان يرتدى عدة أكسية ويدس في جيوبه ما تتسع له من الآكال الناشفة ، ويقصد إلى المعتقل الذي يعلم أن فيه اخواقاً له فيقدم نفسه على أنه شريك فيما جر الاعتقال على زملائه ، أى في المظاهرات وما إليها فيلقون به معهم — وقلما كانوا يصرفونه — فيخلع على زملائه أكثر ما كرم على بدنه ويطعمهم مما حمل ، وكان هذا يزيد المعضل تعقيداً ، لأنه يزيد عدد المعتقلين الذين نحاول تزويدهم بما يفتقرون إليه ، غير أن الوقت كان أضيق من أن يتسع لطول التردد ، فكنا نفعل كل ما يخطر على البال بلا حساب للعواقب ، ما دام له غناء إلى حين ، وسهل الأمر قليلاً أن المعتقلات كانت تضيق بمن فيها فيسرح بعضهم ليكون فيها محل لمن يقبض عليهم في كل يوم .

وليس من همي أن أتحدث عن الثورة وما كان فيها ، وإنما أريد أن أقول أنها زادت عنائي وضاعفت ما كنت أكابده من مشقات ، وكل شيء عادة ، فألفنا التعب كما كنا نألف الراحة والرخد ، وسكننا إلى الأحوال الحديدة الحافلة بالمنقصات والمتعبات ، وانقطع

التبرم والضجر ووطنا أنفسنا بسرعة على احتمال كل ما عسى أن
تجيء به الأيام .

وكان كل طريق إلى بيتي ، يسجج إلى التراب القابر ، فكنت أسلكها
كل يوم ، وأرى الأحداث المبهرة في كل صباح ومساء ، وتحت ضوء
القمر ، وفي وقدة الظهر ، وفي الظلمة الخالكة ، وفي البكرة المطولة
فتفنى هذا وبلد شعوري بالموت ، وهنا استمر إلى ما لا يحصى منه ، وجعله
فيما أرى وأحس ، أمراً عادياً لا غرابة فيه ولا علة له ، حتى لقد صار
يتفق لي بعد ذلك أن أحتاج إلى الراحة بعد طول المشي ، فأقعد على صو
قبر من القبور الكثيرة في طريقي ، وأشعل سيجارة ، وأروح أدخن ،
وأدندن ، بصوت خفيض ، أو أرسل الصوت بالغناء ، ولا أشعر
بمخرج أو استنكار .

وكان بدء التحول في حياتي أن زويتني ماتت ، وإلى لأومن أن
لكل أجل كتابا ، ولكنني إلى هذه الساعة لا أستطيع أن أعني نفسي
من ثقل الاعتقاد أن الطبيب قتلها ، وهو سكران ، وقد مات هو أيضاً
بعد سنوات : فإلى حيث ألفت ، وما أعرفني شئت بميت سواه ،
ولم يعتمد قتلها ، ولكننا دعوناها - وقد جاءها الخاض - فشممت
رائحة الخمر من فمها ، وفحصتها ثم قال لي إن الحالة طبيعية ، ولم يكن
ثم موجب لدعوتي ، وسيحصل الوضع في أوانه ، ولكنني بقيت فلا داعي
للانتظار (كذلك قال والله) وكنت أعوانه ، فتظهر الآلات وشرع
في العمل ، وجري الجنين فإذا الآلة التي طوق بها رأسه قد حفرت فيه
إخلاًوداً يسع الجنين ، وشغل نفسه دقائق بالجنين ، والتمتص الصناعي
على غير جدوى ، فألحت عليه أن يتركه ويسنى بالأم ، فما ثم شك
في أن الجنين مات ، فرجع إلى الأم لمخرج « الخلاص » فكان والله

يشده كما رأيت الفرق الرياضية تتجاذب شد الحبل بينها بأعظم ما يملك من قوة ، ثم رأى أن هذا لم يجد ، فدرس يده وأخرج الخلاص مقطعا لإربا ، ثم لفها ، وقال ترقد ولا تسقوها ماء ، وأخلى معه ، فقال لي إن الحالة خطيرة ، وإنه آسف . فلم أطق هذا اللف وسألته : « متى تتوقع أن تكون الوفاة . . ؟ إني أسألك عن هذا لأني أؤثر أن أكون على بصيرة ، ولا تخش جزعى ، فان واجباتي الآن لا تدع لي وقتا للجزع ، فلم يجبني جوابا صريحا ، وقال : سترى ما يكون صباح الغد .

وعدت إلى زوجتي فأدركت مما رأيت أن الترف يلح عليها ، وأنها تموت شيئا فشيئا ، فبقيت إلى جانبها أقوى نفسها - وأنا يائس - وأشد من عزيمة . وأبتسم لها وقلبي يتفطر ، وبالغت في المظاهر بالاطمئنان حتى لقد خلعت ثيابي وارتديت ملابس النوم ، ولكنها كانت تحس من نفسها ما لا أحس ، فأوصتني بولدنا خيرا ، وودعتني ، وجادت بالنفس الأخير ويلدى على يدها .

وكاد عقلي يطير ، وهممت بأن أشكو الطبيب ، ولكن ما الفائدة ؟ ! وكيف أثبت تقصيره أو خطئه أو سكره ؟ ! وشق على الأمر حتى لقد تغير رأيي في الناس والحياة الدنيا ، والخير والشر ، وحدثت أكثر من طبيب بما كان ووصفت له ما حدث فكانوا يتعجبون ، ولكن هذا لم يجلبني ، ولم يمنع أن طبيبا ثملا قتل امرأتى ، وأين العزاء في أنه غير عامد ، وأن هذا قضاء وقدر على كل حال .

ولم ينجني من الجنون إلا إكبابي على ابن الرومي . والاشتغال بتصحيح الأخطاء في ديوانه الذي كنت أستنسخه قبل ذلك وهذه أول مرة نفعت فيها شاعر .

تغيرت جداً بعد هذه الحادثة فأنا فيما أحس وأرى مخلوق آخر غير الذى عرفته فى ثلاثين سنة على أنى مع ذلك ظلت قادراً على كبح النفس فلم يفلت من يدى العنان أو لم أدعه يفلت .

وانقضت الأربعون - وأحسب أن عادة استمرار المأتم أربعين يوماً موروثة من أيام الفراعنة الذين كانوا يبقون الحنة أربعين يوماً لتحنيطها - فلم أعد أطيع بيت جدى بعد أن خرجت زوجتى من دنياى فيه ، فتركت فيه ما كانت زوجتى قد جاءتني به فى جهازها واستأجرت بيتاً آخر حملت إليه أثاثنا القديم وعكفت فيه على ديوان ابن الرومى لأصححه على قدر الطاقة .

واتفق فى ذلك الوقت أن عقدت محكمة عسكرية لمحكمة كثيرين فيما زعموه مؤامرة كبرى ، وكان المتهمون أكثر من عشرين بينهم مسكرير اللجنة المركزية للوفد المصرى الذى كان يفاوض لجنة ملتر بلندن ، وكنت أعمل يومئذ فى « الأخبار » مع المرحوم أمين الرافعى بك فسألنى من نيهت إلى المحكمة لحضور جلساتها . . قلت سأحضرها أنا . قال إنه عمل طويل شاق ، فدعة لغيرك ، قلت كلا ، وإن بي حاجة إلى عمل مضمن يشغلنى عن نفسى ، ويصرفنى عن التفكير فى أمرى . وما أصبت به فى حياتى . فوافق ودعا لى بنخير ، ولم تدع لى المحكمة العسكرية وقتنا لسواها ، وكانت تعقد فى اليوم جلستين ، وظلت كذلك من يوليو إلى سبتمبر ، وكنت فى مساء كل يوم أعود إلى البيت فأرتدى على الفراش وأنام كالبيت ، فنفعنى هذا أيضاً وإن كان أسقمنى .

ومن المضحكات أن جريدة الأخبار دعت الأمة إلى الاكتتاب لإقامة تمثال نهضة مصر للمرحوم مختار المثال وبلغت جملة ما جمعته حوالى ستة آلاف من الجنيهات وكانت الاكتتابات تودع بنك مصر أولاً فأول .

ولكن بعض البلهاء ظن أن ما تتلقاه الأخبار من الاكتاب يحفظ في بيتي أنا ، وكان البيت طبقة واحدة ، وله فناءان ، واحد قدامه وآخر خلفه ، وفيه القرن وما إليه ، وكان الجدار الخلفي واطناً ، فأيقظني ذات ليلة صوت جسم وقع في الفناء الخلفي فتوهمت في أول الأمر أن حجراً مزعزعاً أسقطه قط أو نحوه ، ولكني سمعت بعد ذلك حركة كحركة من يعالج فتح باب ، فنهضت ، ومضيت إلى الباب الموصل ، وفتحت شباكاه ونظرت فإذا واحد من أهل الحي ولم يخطر لي أنه جاء ليسرق ، فما في البيت ما يستحق أن يطمع فيه أشد اللصوص قناعة ، وظننته جاء يطلب شيئاً ، فحييته وإن كان قد أسخطني عليه أن يجيء في هذا الوقت المتأخر ، وفتحت له الباب وقلت له « تفضل » وحملت ما بدا لي من تردده واضطرابه على محمل الخجل فألححت عليه فدخل ، ففضيت به إلى المكتبة ، وناولته سيجارة وقمت لأصنع له قهوة ، فاستغرب سلوكي معه ، وأعجبه على ما يظهر ، فأقر لي بالحقيقة وسألني الصنف ، فضحكت ، وقلت له والله إنني لجلدير بأن أخجل منك ، فإن البيت فارغ ، ودرت به على الغرف ليرى بعينه مبلغ فراغها فزاد خجله ، وطال اعتذاره وعظم أسفه ، فخطر لي أن من نقص المروءة أن أردّه خائباً ، صفر اليدين ، ولم أجد غير الكتب ، فتناولت طائفة منها ، وقلت له خذ هذه وبعها ، وإذا احتجت إلى سواها فتعال إلى ، فقد ملأت عبادة الأصنام وكتبت له رقعة وقلت فيها اني أعطيتك هذه الكتب ، حتى لا يزعجه الشرطة .

والطريف بعد ذلك أنه صار صديقي فقال لي يوماً ان هذا البيت غير مأمون لأنه « منطة » وأن الأولى أن أتخذ حارساً ، ولولا أنه مشغول بكسب رزقه لتولى الحراسة الواجبة . ولكنه سيجيء برجل أمين يقظ ، يؤدي هذا الواجب .

وبعد بضعة أيام جاعني بفتية أعمى وقال هذا حارسك ، فلم أر أن أردّه ، فكان يبيت كل ليلة عندي على الشرفة ، وإلى جانبه نبوته . وكان خفيف النوم فكل شيء يوقظه ، وإذا استيقظ ضرب الأرض بنبوته وصاح « من القادم . . » فاستيقظ أنا أيضاً ! . . فلم أجد لي في هذه الحراسة راحة فحولته إلى المقبرة ، وقلت له اقرأ على هذا القبر كل يوم ما تيسر من القرآن الكريم .

وانتقلت إلى بيت آخر آمن وأقل حاجة إلى هذه الحراسة .

- ١٣ -

منذ مئات من السنين ، أو الحقب فما أبعد هذا الماضي فيما أحس ، وما أقربه أيضاً — قرأت قصة هيبسيا لشالز كنتجزلى ، وكان صديقى العقاد هو الذى دفع بها إلى رأوصانى ، وأنا أقرأها ، أن أحضر إلى ذهنى قصة تاييس لأناتول فرانس ففعلت ، ورأيت كما رأى ، أن من الممكن أن يقول المرء أن القصة الانجليزية هي التي أوحى إلى الأديب الفرنسى بموضوع تاييس ، وأنا أفضل القصة الانجليزية ، وإن كان أناتول فرانس أبرع فنانا وأسحر أسلوبا ، على أن هذا موضوع آخر ، وكل ما أريد أن أقوله أن في هيبسيا ، على ما أذكر ، رجلا عجيب الأطوار غريب الفلسفة ، يكون في زورق أو سفينة — فما أدرى الآن — فيروح يتفلسف في ضعف دلالة الحس على وجود المحسوس ، حتى ينتهى إلى إمكان القول بأنه هو غير موجود على الرغم من إحساسه بنفسه ، وشعوره بوجوده .

وقد راقى هذا الرجل يومئذ وأعجبته فلسفته ، وإن كانت تؤول إلى لا شيء ، وبعد كل هذه السنين لا يزال منطقته يدور في نفسى ، ومع ذلك لا أستطيع أن أتذكر اسمه ، أو ماذا هو في الرواية ، وكنت في صباى — أى نعم في صباى — أحببت فتاة كانت جارة لى ، وكانت في مثل سننى ومن أجلها كففت عن اللعب في الحارة مع الغلمان ومن أجلها كنت أسقط من سطح بيتنا على سطح بيتها لأنعم بحديثها وآتملى بالنظر إلى حسن وجهها ، فقد كان أهلى يزجرونى عن لقاءها وأهلها لا يرضون عن حبنا الصبباني ، وهؤلاء وأولئك جميعاً يخشون العاقبة ولا يطمثون إلى النهاية . وكنت لا أكم حبى لها ، بل أشعر به وأنا بجلد مسرور وأحدث به غلمان الحارة ، فيستغربون ، وخادمنا فيدعو لى بطول العمر والسعادة ، والشيوخ الوقورين

من أصدقاء أخى الأكبر فيضحكون ، ويتسلون ، ويربتون على كتفى ويقولون « عال عال ما شاء الله ما شاء الله » .

وكننت أقول لأى حين تنهرنى عن هذا الذى كان فى رأيها هبتاً « ماذا يضير أحداً أن أحبها ؟ »

فتقول « اختشى يا ولد عيب ! »

فأتعجب وأسأله « عيب ؟ أى عيب فى حبي لها ؟ لى لا أصنع شيئاً سوى أنى أحبها . »

فتقول « هذا هو العيب »

فأسأله « ألسن تحيينى ؟ »

فتبتسم وتقول « يا بنى كيف تسأل ؟ »

فأقول « لست أسأل ، فىنى أهرف أنك تحيينى ، وأنا أحبك وليس حبك لى عيباً ، ولا حبي لك ، فلماذا يكون ذلك عيباً ؟ »

فتقول « هذا شىء آخر ، أنت لى بنى ، وأنا أملك ، ولكن هذه . . . هذه ليست منا » .

فأسأله « إن أبى لم يكن منك . ولكن تحيينه ، ومازلت تلبسين السواد حداداً عليه منذ سنوات »

فتقول « ولكنك صغير لا تفهم »

فأقول « صحيح أنى صغير ، وأنى لا أفهم ، ولكنى أحس يا أمى . . . ألا يكفى أن أحس ؟ وصدقنى ولا تغضبى أو تستأنى حين أقول أنه أشهى لى أن أكون جالساً إليها الآن وإن قلبى يرف صبوة إليها »

فتطرق شيئاً ثم ترفع رأسها وتضع أيدها على كتفي وتقول « وبعد ؟
ما هي النتيجة ؟ ما هو المآل ؟ »

فأقول « لست أعرف ماذا تسنين ؟ كل ما أعرفه أني أحبها وأنا فرح
بذلك .

فتسأل « ولكن النتيجة ؟ ماذا بعد هذا الحب ؟ ما آخرته ؟ »

فأقول « لا شيء . . أحبها ، وهذا هو الأول والآخر . . ثم لماذا
يكون له آخر ؟ »

فتقول « انك طبل .. وهذا غير محقول »

وكان حب هذه الفتاة ينمو على الأيام . كما ينمو شعر رأسي . وقد تحولنا
إلى بيت آخر وبعدت الشتات جداً ولم يكن هذا ليمعني أن أقطع المدينة من
أولها إلى آخرها سيراً على القدمين كل يوم لأزورها . وثابرت على حبها
أعواماً طويلاً ثم زوجوها في الأرياف فغابت عني ، فغاب الخير والأنس ،
وغاض السرور من نفسي ، وأظلم القلب .

كان هذا وأنا صبي في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، وقد مضى ثلث
قرن وزيادة على هذا الحب الأول ، وزحنت المدينة ، وهدمت الحى الذى
كان فيه بيتها . هدمته كله ، ورفعت عمائر جديدة ، وشقت طرقاً ، ووسعت
مياذيق ، وغرست أشجاراً ، ومدت نهجاً ، وأجرت تراما . وإذ بي في
يوم من الأيام أزور هذا الحى وأجوبه شبراً شبراً ، وأتمثل ماضيه كيف
كان ، حتى اهتدى إلى الرقعة التى كان بيتها قائماً عليها فأرجع مغتبطاً قرير
العين ، وأزداد اعتزازاً بذكرى ذلك الحب .

ولم تهت ولن تهت صورة الفتاة ، وإنى لأراها الآن ، كما كنت
أراها في ذلك العصر الحالى ، واقفة إلى جانبي وأمامنا على النافذة طبق فيه
« لب » تقشره لي ، وتعطينه ، لأنى لا أحسن قشره ، أو جالسة على

حشية تسرح شعرها الدجرجى ، وترجله وتضفره ، فأميل على رأسها ،
وأدنى أنفى من شعرها الرخس ، وأشمه . وإني ليخيل إلى أنى أجد طيبه
الآن أنفى ! وما أقول « يميل إلى » إلا انتقاء لإنكار القارئ فإن شعورى
بذلك أصدق ما يمكن أن يكون شجور لإنسان بشيء . وما زلت أراها ،
تجربى فى الحارة وراء دجاجة لما شاردة ، وأنا أدعوها أن تترث وتقف
هناك ، وتخطو مرفقة ، على حين أقف أنا فى ناحية أخرى لتتصر الدجاجة
بيننا ، ونزحف ونفمق على الدجاجة المارقة ، وهى تصيح وتضرب
بجناحيها ، وتحاول الإفلات ، فتعنى الفتاة عليها بنته لثمكها ، فتأخذ
عيني نديها الناهدين الراسخين وقد ثلثا بالثوب وأحس حزنها تحته ؛
فيدور رأسى وأذهل عن الدجاجة ولا أعرد أدري أفلتت أم وقعت ،
فتصيح بى وقد اعتدلت « مالك وقفت وسكت ؟ ألا تساعدنى ؟ » فأفبق
وكأنى عدت من عالم آخر ، ولا نزال بالدجاجة حتى نمسكها .

وصورتها وهى على السطح تنشر الثياب المغسولة على الحبال الممدودة
وتثبتها بالمشابك ، وقد كسفت عن ساعديها وطوت الكمين فوق المرفق ،
فبدت البشرة السمراء مضطربة من أثر الغسل ، وجهه الدعك وفعل
الصابون .

وصورتها وهى واقفة بفناء البيت تودعنى ، وباب السكة موارب ،
وقد ضمتها إلى صدرى وطوقها بأراعى ، وعكفت على فمها بالقبل
الحرار ، وكان وجهها إلى الباب ، وظهري إليه ، فترجل من أصدقاء
أخى ، نعرفه ثرثرة تماما ، وتراه فتحاول أن تفلت من عناقى ، وأحسها
ضجرت ، وأتوهمها فترت ، فأكتب ، فتصيح « لا لا . هذا الرجل »
وتقص على الخبر وتعيد لى بشاشتى وترد إلى روحى الإشراف .

وصورتها وهى راقدة ورأسها على وركى ، ويدى على شعرها أمسحه

وأتخلله بأصابعي ، وألمس خدها الأسيل ، وأداعب شفها الرقيقة بأصبعي ،
فتغافلني وتعضة .

كلا ، لن تبث هذه الصور إيدا ، ولن تكبر الفتاة أو ترتفع بها
السن ، أو يزداد عمرها عندي يوما ، وستظل على الأيام غضة صغيرة .
ولكنني نسيت اسمها ، فكأنني ما عرفته قط ولا سمعت به .

تري ماذا كان ؟ وكيف كان في السمع ؟ وفي وسعي أن أسميها شيئا
وأن أطلق عليها أعذب ما أعرف من الأسماء ، ولكنها عندي أحلى هكذا
بلا اسم ، ولا عنوان . وماذا يريد أن يكون لها اسم وماذا أصنع به
وليس ينقص الصورة شيء ؟

نسيت اسمها كما نسيت اسم ذلك الرجل المتفلسف في قصة هيبسيا .

- ١٤ -

بعد أن كتبت الفصل السابق شق على أنى نسيت لماذا سقت قصة هذه الفتاة التي أحببتها وأنا صبي ، ولا يزال حبها - أو الذكراء - نومة في الفؤاد ، وعلوق بالنفس ، وقفايت أياها أحاول أن أذكر .
 حبي وأنا أعمل أو أتكلم ، أرى شواطى تنثنى إلى هذا الذى تنلت دنى وغاب عني ، وكان يئسسل إلى أحياناً أن السجف المسيل ينمحي قليلا ، قليلا ، أو ما يشبه السحاب المعقود يرق ويشف ، وأن نجما يوشك ومنه اللفاق أن يطالعني ، فأبتسم ، وأطمع ، وأتشرّف ، ولكن ما كاد يرق يعود فيتناثف ويتراكب ، فارتد بالخيبة والأسف ، وأنعزى بقولي من يدرى ؟ إن للذاكرة معاثتها ، وقد يفتق لي يوماً بعد أن أكف عن تعنية النفس بما نسيته ، أن أكون في مجلس شراب أو في السينما ، أو أكون ناهضاً من رقاد ، فيعصر الغائب ويظهر المحجوب أو المتوارى ، ويطفو الراسب ، ومن يدرى أيضاً ؟ لعل حينئذ أتذكر اسم الفتاة !

ولكن أيمكن أن أكون على يقين أن هذا اسمها ؟ هل يسعني أن أطمئن إلى أن هذا الاسم هو الذى كنت أعرفها به ؟ كلا ، فالإلى هذه الثقة أو الاطمئنان من سليل ، وعجيب أن أنساه .

وأعجب منه أن ما يدور في نفسي من الأسماء لا أجد له في جوانبي صدى ولا أحس منه هزة أو عسى أن تكون هي قد نسي اسمي ، بل نسيني جملة ، فما كنا إلا طفلين تلعت بما لا نفهم ، وما أحسبها غالت بحبها لي وضنت به على العفاء كما غاليت وضنت ، وأكبر الظن أن شئون

الحياة وشجونها وأفراحها وأتراحها أذهاتها عن ذلك العهد على ما كان فيه من حلاوة ، وله من سحر . والله ليضلر لي أحياناً ، وأنا أرى بني أن هؤلاء كان يمكن أن يكونوا بني منها ، ولو رأيت أبناءها — أترى صار لها بنون ؟ — لما وسعني أن أتصور أنهم بنو عادي ، أو على الأقل أن خاطري المائل في نفسها لم يطبعهم بشيء سيئ ، ولكن أنى لي أن أعرف — بل أكون واثقاً — أن خاطري يتمثل ، أو كان يتمثل ، لها ؟ ويشق على أن أتصور أنها نفسى . ولعل حبها لم يكن كفاء حبى ، ولكن أحسبها تنسى كل شيء إلا أنى فزعت إليها واختفت عندها وفي بيتها ، وفي حجرة مظلمة رطبة مزجورة منه ، يومين كاملين .

وكان أخى الأكبر — رحمه الله فإن به حاجة إلى الرحمة — قد أراد أن يبرنى ويسرنى فدعاني إلى مرافقته في يوم « شم النسيم » فذهب بي ، ومعنا من أصدقائه ذلك الشركسى الثرثار الذى أشرت إليه في الفصل السابق — والذى رآنى أعانق فتاتى فذهب يقص الخبر على كل من يلقاه ويقهقه فسمعت به أمى واغتمت له جداً — إلى روض الفرج ، وكانت هناك سفن راسية .

وقد صفت عليها الكراسى والبلزلات على هيئة المذاهى ، فجعل أخى وصاحبه يشربان « بيرة ستوت » وجاءت امرأة سمينية ، ولكنها جميلة فسلمت وجلست ، واديرب عليها الراح التى تدار عليهما ، ونظرت المرأة السمينية إلى بعينها المكحولتين وسألت « ألا تشرب ؟ » فتبسست ولم أرد ، فقال أخى وكان من أعطف الناس إذا شرب — « خذ... إن هذا لا يضر » فهززت رأسى أن لا ، قال على وهمس في أذنى « لا تخف لإشرب وأنت آمن » فهززت رأسى مرة أخرى ، فعاد يهمس في أذنى « اشرب بالله ، وسأقول لخالتي » يعنى أمى ولم تكن خالته ولا أمه « أنى اسقيتك سوبية » وهى شراب يصنع من الأرز فقبلت ، وأقبلت على الكوب الكبير اكرع منه كما يكرعون ، وكان هذا أول عهدي بالشراب ، فدار رأسى قليلا ،

وأحسست بالدم يصعد إلى ما وراء عيني ويتجمع هناك وانطلق لساني وراح هذا الشركسي الثرثار يغمز أخى فيسألني هذا عن فتاتي ، فأقول بجبي فيضحكون ويقرهقون ، وتكون المرأة السمينية الجميلة أعلاهم ضحكا وأشدهم قرقرة ههههه ، وكانت صورة هذا المجلس ماثلة لخاطري ، لما نظمت بعد سنوات طويلات المالد — قديمية ملاحها .

حشا شرابهما في نلح حسان رياه ريناننا في مجلس الحان
ريا الحبيب . ولا شيء كنتفحته وهنا يهيج أدلرابي وأشجاني
حشا شرابهما حتي رأيتها لا يبعان ، وإن كانا يقولان
هما أثيران علاني على ظناً وبالشراب على سري يغوصان

ولم أكن أعني هذه السمينية الجميلة ، ولكن صورة مجلس الشراب الأول ألت ، على ، فضي القلم يرسمها في التي يطربني منها ما تثيره من الذكرى .

ولا أحتاج أن أقول أني سكنت ، وقد دخلت على أمي ، وشمت من فمي رائحة النلح ، فغضبت ، غضباً شديداً « دعت جدتي « لأبي » وقالت انظري ما صنع خيرى بأخيه ؟ فنادت جدتي أخى ، فأقبل عليها يتسم لها ، فباحت به « يا قليل الحيا يامزبلح .. خلد » وتلعت القبقاب ، وأهوت به على أخى وهو يضحك فيلادنينا ويعتذر ويسألها الصفع ، ويحاول أن يطمئنها على ، وكنت أنا قد تسللت إلى غرفتي ، وارتيمت على السرير ، ولم أكّد أفعل حتى ألتيت ما في جرفي على البساط ، فخجلت .

ولم أعد أطيق أن أنظر إلى وجه أمي أو جدتي ، فصعدت إلى السطح وانحدرت منه — على السلم المعهود — إلى سطح الفتاة ونزلت إلى الفناء ، وأهبت بها أن تؤويني ، وتحفني عن العيون — حتى عيون أمها وأختها — فحاربت كهن أصنع ، ورأيت أنا باب الحجرة المهجورة فدفعته ودخلت

وقلت هنا أختبئ ، ولم يكن في الحجرة شيء يصلح للجلوس أو الرقاد ، فسرقت الفتاة كرسيا قعدت عليه حتى نتدبر الأمر ، ثم جاءني بمصير ومخدة فارتيمت ونمت ساعات ، ولما أفقت كانت قد هبات لي طعاماً - بيضاً مسلوقاً وقطعة من الجبن وبضع زيتونات وخبزاً - فأكلت هنيئاً وشربت ماء كثيراً .

في هذه الحجرة قضيت ليلتين ، وكنت فيها كأني في سجن ، فما كنت أبرحها إلا دقائق حين آمن العيون ، وكانت الفتاة تؤنسني بوجودها ، وتجيني بأخبار البحث عني ، وقد ضحكنا سبداً لما روت لي أنهم أطلقوا منادياً يشيح في الشوارع « ياللي شاف ولد تايه عمره اتناشر سنة لابس جلابية بيضه وراسه عريانة اسمه ابراهيم ... الخ الخ »

وكان ضحكنا لأنني لست طفلا حتى يظنوا أنني تهت وضللت الطريق وكان قلبي يعصره الألم كلما تصورت جزع أبي وجدتي ، وبكاءهما ، وقد هممت مراراً أن أبعث إليهما بخبر مطمئن ، ولكن الوقت كان يمضي ولا أفعل ، وكان التردد في هذا والخيرة شر ما أعاني ، ولكنني كنت راضياً مغتبطاً بقرب الفتاة وحسن رعايتها لي ، وصدق سريرتها في كتمان سري ، حتى عن أمها وأختها . ولم أكن أبالي الرطوبة أو الظلام فقد كان الوقت صيفاً ، والظلام جنة ، وألفت عيناى النظر فيه فكان حسبي أن أرى عينا الفتاة .

ولكن الحب ، بالغاً ما بلغ من القوة والعمق ، لا يمنع أن يضيق المرء صدره بهذا الحب ، وأن تلح الرغبة في الخروج من مثل هذا المحبس على ما كان فيه من الأنس ، ولم تنكر الفتاة منى ما كان يبدو من تمللي وضجري واشتغائي الخروج إلى النور ، بل تطوعت فكانت رسولي إلى أمي تطلب لي منها الصفح ، فما كان من أمي إلا أن اثتررت وخفت إلى ، وضمنني إلى أحلى صدر ورأق قلب كأنما كنت قد غرقت أو خطفت . . .

كلا ، قد تنسى الفتاة كل شيء إلا هذه الحادثة ولكن أين هي ؟ فوق
الثرى أم تحته يا ترى ؟ قد تكون ماتت ! أو تكون الآن عجوزاً شمطاء !
فهل أنا أحب اليوم أن أراها ، وأن أعرف كيف صارت من بعدى ؟؟ لا !

ولانى لأذكر أنى كنت يوماً أتمشى مع صديقى الأستاذ العقاد ، فرأيت
رجلاً قصيراً مرسل اللحية أبيضها ، مقوس الظهر ، مغضن الوجه ، فقلت
لصديقى « أنظر . . هذا هو المازنى فى السبعين من العمر ! تالله ما أقبح
ما نحن صائرون إليه من الضعف والهدم والدمامة ! لا ياسيدى ، خير من
هذا المصير عمر قصير مع الصحة والقدرة .

نعم ، أكره أن أرى الفتاة فى حاضرها ، وأن أفسد على نفسى صورة
صباها النضير ، وشبابها الريان ، وهما ماتت ، فما ماتت عندى ، ولانى
ليموت منى كل شيء ، ولكنها هى عندى ومعى حية لا تموت ولا تهرم
مابقيت .

- ١٥ -

أراني منذ بضع سنوات أزداد كل يوم انقباضاً عن الناس ، وفقروراً
عن لقائهم ، ومخالطتهم ، ونفوراً من الاتصال بهم ، وكنت قبل ذلك
أحس الضيعة إذا لم أجد من أجالس وأحدث ، وكان يسرني أن أسمع
صوتي - لا شاديا بل متحدثاً - وكانت لذة الحديث لاتعادلها عندي
لذة ، وكنت في سبيل هذه المتعة البريئة أصنع كل ما يراني الأخوان ذا
ولوع به أو طلب له ، من برىء وكانت الوحدة تتلف أعصابي ،
تعصف باتزاني ، وتكلفني شططا ، ثم ألفتني - من حيث أشعر ،
ولا أشعر ، أضيق الدائرة ، أو أوسع لنفسى المخرج من محيطها ،
وأنتسل شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت ألتفت فلا أجد حولي أحداً ،
وصرت إذا احتجت إلى لقاء صديق قديم ، أتردد ، وبى من التهيّب والخجل
مثل ما يحس المرء عادة عند لقاء غريب لا عهد له به .

وقلت لنفسى مرة « ياهلدا ، إنك لتمشي في شارع غاص بالخلق
مائج بالرائحين والغادين والرائحات والغاديات ، وتروح وتجيء مثلهم أو مثلهن
ساعة أو بعض ساعة ، وتقطع خمسة فراسخ في الذهاب والإياب فلا يتفق
أن تلقى وجها تعرفه . نصف المدينة القارئة تخرج إلى هذا الشارع وتسير
فيه . وكل من ترى معه صاحب أو صاحبة ، ولا تزال يده ترتفع بالسلام
أو رأسه يهتز بالتحية لهذا وذاك ، إلا أنت فما يمر بك من تعرفه
أو يعرفك ، ومع ذلك أنت أشهر من يمشى في هذا الشارع ، ولعل
كثيرين ممن تأخذهم عينك قد قرأوا لك ، وأعجبوا بك أو سخطوا عليك
فهم يعرفونك إذا كانوا يعرفونك - وراقب مغلفة أو مجلدة

ولا يعرفونك في الأحياء من أمثالهم ، ومن يدري ، لعلمهم يستغربون ، بل يستنكرون أن يروك في الطريق ! فكثيراً ما تحصل في نفوس القراء صور للكتاب ليس أغرب منها ولا أعجب . وقد خابت لي أنا آمال كثيرة في أدباء عرفتهم قبل أن أراهم ، لأنني وبلدتهم على خلاف ما كنت أتخيلهم مما أقرأ لهم . والصورة التي يرسمها المرء للمجهول تكون على هواه ، وقلما يكون الأصل على حقيقته كذلك . والنفس بعد أن تفرغ من رسم الصورة وتلويحها وانطاقها بالتعابير المستوحاة من الآثار المنشورة يعز عليها أن تتناولها بالتنقيح والتبديل بل بالتغيير التام في أحياء كثيرة وهذه الصبورة المتخيلة تكون من جهد النفس ، والنفس لا يطيب لها أن يذهب جهدها عبثاً ، وأثقل من ذلك على المرء أن يعترف بأن فراسته لم تكن صادقة ، وأن التوفيق أخطأه فيما تعب فيه ، وباهي فيما بينه وبين نفسه به . وما أكثر ما سمعت من الناس في أول لقاء « غريب » ! لقد كنا نتخيل المازني شيئاً جسيماً له طول وعرض « أو قولهم » لقد كنا نتصور أنك نكور على رأسك عمامة عظيمة وترسل لحية كثة « أو قولهم » أنت المازني أم اختراله ؟ ومتى كان هذا هكذا أفلا يكون الأمل أن أبقى في اذهان الناس كما يشاءون ان يتخيلوني ، وان اظلل عندهم كتاباً يقرأونه ويرضون عنه فيما أرجو - أو لا يرضون فقد استوى هذا وذاك عندي - ٢٢٢ »

وقلت لنفسى أيضاً « إنك لم تعيش إلى الآن » كما تحب وتوثر أن تعيش ، ولا سبيل إلى حياة تشبهها مادامت تخوض العباب مع الخائضين وتضرب في اللجة مع الضارين ، لأنه لا يسعك إلا أن تنزل في الأغلب على حكم الجماعة ، ولكل جماعة قواعد حياتها ، والأمر في جد الحياة مثله في لعبها ولهوها . وكما أن للعب أصوله ونظامه ، كذلك للجد ، ولا مفر من التزام هذه الأصول إلى حد كبير والنزول على حكمها ، وإن كان كل خاضع لها يتسخطها ولا يرتاح إليها ، إذ القيد قيد على كل حال

فإذا أردت أن تحيا حياتك على النحو الذى هو آثر عندك فلا مهرب من التعزل ليتسنى لك أن تكون على هواك .

وقلت لنفسى أيضاً ، على سبيل التشجيع « واعلم أنك لا تخسر شيئاً تنحسر عليه ، وتألم فقدانه إذا أنت انصرفت عن الناس وزهدت في مخالطتهم ، فسيكون عندك خير عوض عما يفوتك ، ذلك أنك تكون كالذى يشرب عصارة ولا يمض ، فهل من الخسارة تعفى نفسك أن تعب التقشير والمض ، ومنظر النفاية التى لم يبق فيها خير ، وأن تقنع بالعصارة التى هى الخير كله ؟ ؟ »

وصحيح أن بذل الجهد لذة ، وأن ما يتعب فيه الإنسان يكون أحلى وأمتع مما يجيء بلا عناء ، ولكنى لن أحرم لذة الجهد ، حين استغنى بالكتب عن الناس . وقد صرت أكل ما يريح وينفع ، لا ما هو أشهى وأمتع ، وأشرب ما يفيدنى لا ما هو أعذب في فمى أو ما أنا إليه أميل وأنى لأرد نفسى عن كثير مما يتحلب عليه الريق ، لأن طاعة النفس فيه يجيء في أعقابها مالا يطاق من الآلام والأوجاع . وهذا كله رياضة على الحرمان وعلى أن الحرمان لا يكون إلا من الطلب ، ولا أعرف لى الآن مطلباً عند الناس ، فقد بعد ما بينى وبينهم جداً ، وإنى لأراني مع الواحد منهم فأحس أنه في كوكب آخر وعالم غير عالمى . ليس همى همهم ، ولا أنا منهم ولا هم منى في قليل أو كثير ، ومنى ذهب الشعور بالمشاركة فإذا يبقى ؟؟ ولست أعنى أنى خير منهم أو أفضل ، ولكنى أعنى أنى أراني مختلفاً ، والاختلاف ليس مزية ، ولا أفضل فيه ولا رجحان .

وقلت لنفسى أيضاً « لقد ثار بي صديق مرة لأنى سأله ألا تشهى أن تتمرغ كالحمار على الأرض ؟؟ وحسب أنى أقول إنه حمار ، وأنه لا ينقصه إلا أن يتمرغ وأعترف أنى أسأت العبارة عما أريد ولكنى إنما عنيت أن النفس تنزع إلى الحرية ، وما دام لا ضير فيها على أحد فإذا

يمنع منها ؟؟ ولماذا نحيا أنفسنا بأسلاك شائكة لضرورة لها ولا منفعة منها ؟ .
وهي تترغى على التراب ، وتقلب على الأرض ، كما يفعل الحمار ،
فأين البأس هنا ؟؟ إذا كان ثم بأس فهو على لا على أحد غيري ، وثيابي
هي التي ستسخ ، ووجهي هو الذي سيتعقر ، وإذا كانت نفسي تنازعني
أن أفعل ذلك ، فإنني أنا الذي يؤذيه الإحجام عنه ، وأنا الذي ترتاح
أعصابه وتسكن نفسه إذا فعل . ولكن صاحبي غضب ، وإن كنت لم
أقصر في الشرح والبيان ، وفي الاعتذار من سوء العبارة وقبح الاختيار
للمثل . ولا يزال يذكرني بالسوء كلما عرض ذكرى في مجلسه ، ولا ينفك
يقول إنني وقح قليل الأدب ، ولا شك أنني كما يقول مادام الأدب هو
ما يعرف . وقد يسره ويخفف من سخطه على أن يعرف - إذ أمكن أن
يحمل نفسه على قاءة شيء لي - أنني أخرج في بعض الأحيان ، إلى
الصحراء وأتمرغ بالحمار على رمالها ، وأعوى كالكلب وأموء كالقط ،
وأصرخ وأصيح في هذا الفضاء الشاسع ، ثم انهض وانفض عن ثيابي
الغبار ، وأمسح وجهي ويلدي . وأعود إنسانا محتشما ذا سمت ووقار ،
ولكن بعد أن أكون قد أرضيت نفسي وأشعرتها أني حرولي في هذا
الذي لا قيمة له عند الكثيرين ، وأن في وسعي أن أفعل ما أشاء ، وأكون
على ما أحب . ولا نكران أن هذا لا يتاح لي إلا وأنا منفرد وحدي ،
ولكنه ليس بالقليل أن تستطيع أن تكون مستفرداً وحده وأن تنعم
بذلك ، ولا تستوحش نفسك ولا تصبو إلى الناس .

ولعل المتعة مستفادة من القدرة على مغالبة الصبوة إلى المجتمع لا بما
عسى أن تفعل وأنت وحده . ولكن كثيرين يكونون وحدهم ، ولا عين
عليهم ، ولا خوف من أن يراهم أو يسمعهم أحد ومع ذلك لا يجرعون
أن يفعلوا ما تحذوهم به نفوسهم .

- ١٦ -

وقلت لنفسى أيضاً « لا أدري لم هذا الموت ؟ وإنى لأشهى أن أرى حياة من لا يموتون ، وبودى لو يمتد بي الأجل إلى زمان يسع الإنسان فيه أن يقالب هذا الردى العادى . وأحسب أن الموت هو مصدر مانعه فضائل فى الإنسان ، وقد شرحت هذا فيما كتبت عن المتنبي فى « تصاد الهشيم » فلا أعود إليه ، ولكنى أحسبه أيضاً علة ما ألفنا أن نسميه الرذائل . غير أنه ما الخير والشر ؟ وما الفضيلة والرذيلة ؟ أخشى ألا يكون هذا وما إليه أكثر من ضوابط للسلوك ، ووسيلة لتنظيم الجماعة والارتفاع بما فى الطباع . وإنا لفي زمن يعد فيه الخير فى مكان شراً فى مكان غيره ، والفضيلة هنا مردولة هناك . ولقد أدركت عهداً كان ذكر الحب فيه عيباً ؛ وكان تقبيل القى لأمه التى نجلته ، قلة حياء ، فالآن نعلم أولادنا أن الرجل والمرأة ما لم يتحابا لا يجوز أن يتعايشا ، ونطلب لغير الشرعى من الأبناء مثل ما لصنوه الشرعى من الحق والكرامة ، ونرى الخطيبين أو الزوجين ، أو الصاحب والصاحبة يتلاثمان على قارعة الطريق وفى المجلس الحافل ، ونحس الرضى والاغتباط من الناظرين ، ونشعر أنهم يدعون لهما ، ولا نحس أنهم يستهجنون أو ينفرون وليكن هذا كيفما شاء الله أن يكون ، فأين العزاء فيه لحي لا يلبث أن يصبح « هالكا وابن هالك ، وذا نسب فى الهالكين عريق » ؟

وطال تفكيرى فى هذا الموت ، وخامرنى خاطره ، فهو لا يفارقنى فى يقظة أو منام ، وإنى لأحلم به وإن كنت بلطف الله أصبح ناسيا ما تراهى لى من الصور والحوادث فى رقادى ، وما غمضت عيني ليلة إلا

وأكبر ظني أن أفقد نفسي فلا أعود إلى الشعور بها ، وقد أحب أن أهون على نفسي الأمر فأتساءل متغابياً أو مغالطاً « أترى كل ما في الموت من هذا النقدان للشعور بالذات ؟ » ولا ينفذني هذا فأرتد أقول « وكيف يتبدحيا من لا يعرف أنه حي ولا يحس بنفسه ؟ وماذا تكون إذن جلدري استمرار حياة لا يحسها الحي ولا يفتن إليها ولا يدرك بها أنه موجود » أطلق الجنين على الجنين وأنا أحدث نفسي أن ما لا حيلة لي فيه لا حيلة لي فيه ، فلا أنصر عن تدبره ، ولكن على وائيا مو ادخار التوبة والدفاع بها إلى آخر روق . ولكن قاي يظل يخفق ويدق ، ويكبر في وهمي أني إذا نمت قد تخاس مني الحياة وأنا ذاهل غافل لا أقدم دفاعا ولا أقوم بكتفاح ، وأحس دقات قلبي في رأسي قوية تكاد تغلق العنلم ، وأسمعها بأذني مدوية تعصف بسكون النفس واتزان الأعصاب وأشعر كأن كياني كله يرتج ، بل يزلزل ، فاحتال لاستعادة السكون ، وأوثر لهذا أن أنام وأنا قاعد فإن القعود ، فيها بهربت ، يعينني من حدة الشعور بدقات القلب ، وأروح أقول لنفسي . يا هذا إن الدقات منظملة وإن كنت أسمعها عالية ، وكل لإنسان يستطيع أن يسمعها ويستهلها كما تفعل إذا هو جعل باله إليها ، فتلبك بخير ولا خوف عليه على الأرجح من سكتة مفاجئة ، يجمد من جرائها تيار الحياة ، وقد قال لي طبيب استشرته أن القلب سليم وأن جسمك الضئيل لا يكلفه جهداً وأن أيسر عمله كاف جداً لإدارة الدم في البدن كله وهذه أعصابك قد أنلفها بهذا التفكير الدائم في الموت ، فهل تستطيع أن تبين لي على أي شيء تخرص في الحياة حتى تجزع من الموت هذا الجزع ؟ وأشغل نفسي بجواب هذا السؤال ، وأروح أعرض على نفسي وجوه حياتي ، ولا أبخس الحسن حقه ولا أغالي بالقبيح أو أهول به ، ويطول بي ذلك فيأخذني النوم وأستريح من هذا العناء الباطل .

ولكن الخاطر يظل حاضراً أبداً ، على الرغم مما أحاول أن أدافعه به ، فأنا أقعد للتلعام وأحس من نفسي الإقبال عليه والرغبة فيه ، ولكن

كل لقمة أتناولها يصبحها إنذار « حاذر من الكظة » فانهض عن اللائلة
وما شبت وتقول زوجتى وهى تقوم معى « لا أراك تأكل الكفاية » فأقول
متمثلا « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » وأتقى أن
أعديها بما ينغص عيشى .

وأكون كما يقول الشاعر القديم :

ولا نزلنا منزلا طله الندى

أنيقا ، وبستانا من النور حاليا

أجد لنا طيب المكان وحسنه

منى ، فتمنينا فكنت الأمانيا

ولكنى أنظر إلى هذه التى هى منى النفس ، وروح الحياة وربحائها
فأرى بأول الظن « آخر الأمر من وراء المغيب » فتبدو لى ملفوفاً عليها
كفن وقد شاعت الصفرة فى عيها المتوهج ، وآضت عينا التى تنفث
السحر كقطع من زجاج ، وشاع فيها البلى علوا وسنلا ، وصارت غصارتها
ونضارتها صديداً سائلا تسد من ثلثة الأنوف .

وأرد نفسى إلى عيني وأترفق بها وأنا أتصور ما لها ، فأراها شجرة
يلوى نورها ، وتذهب زهرتها ويجف ورقها ويسقط عنها ، فتعزى ، ثم
يجيء الخطاب ويهوى على أصلها بالفأس . . . وكانت هنا شجرة ثم
خابت . . . هذا كل شئ .

ويحضرنى بيت للخيام مما ترجمته عنه :

وأين ، لا أين ، بلبل غرد

كان يغنى على الغصون لنا ؟

فأديره فى نفسى وأدهوره فى شدى ، بلا صرت ، وأظل مع ذلك
اتبسم للجالسين وأحادثهم وأمازهم وأجد معهم وهم لا يدرون أنى قبر
مظلم ، وأنى أستر نفسى وأحجبها عنهم بأزاهير الضحك المتكلف ، أى نعم

لها أعرفني ضحكت ضحكة من القلب .. ضحكة سرور حقيقي عميق ..
ولكن ما لهم هم أقول لهم ذلك ، وأغش به نفوسهم وأفسد نعيمهم وأسود
الدنيا في عيونهم ؟ ؟

ويلقاني الشبان ، ويسألوني ، ويرهفون السمع لما أقول ، وفي ظنهم
أنى أحكم منهم وأعلم . وإنى لكذلك ولكنها حكمة خير منها الطيش وعلم
أفضل منه الجهل ، فأقول لنفسي . يا هذا . إنك مسخ كريبه ، وإن كان
هؤلاء الشبان لا يعلمون ، فلا تنزع القناع ، ولا تكشف لهم عن الخراب
والقبح الذين في نفسك ، ولا ندع عيونهم تأخذ الديدان التي تمرح في جوفك
وترفق بهم فإن حسبهم ما لا بد أن تصدمهم به الحياة عاجلاً أو آجلاً بل
آجلاً كما أرجو لهم وأحب وإنى لأتمنى لهم السلامة والنجاة ، ودوام الاغترار
بالعيش . وإن قلبي ليعصره عاصر حين أتخيلهم وقد فتحو عيونهم على
حقائق أخرى غير التي يعرفونها أو يأملونها ، وأروح أرسم لهم صورة
للحياة الزاهية واضع نفسي في موضعهم وأتكلم بمثل لسانهم ويكلفني هذا
شططاً ، فليس أقسى من ثني الأعصاب وأكراهها على بحالة غير حالتها
وتخييل إلى وأنا أبذل لهذا الجهد من نفسي أنى أوقدت ناراً تحت أعصابي
لتحمي ، وأنى أدقها بمطرقة لتلين وتتخذ الصورة التي أريدها ويوسفني
أنى لا أجدها أمرها به بعد ذلك لتخمد الجذوة وتبرد ، ويذهب
عنها الحر .

وأسأل نفسي : أترك تمنى أن تستأنف حياتك وتبدأها من البداية
كرة أخرى ؟ ولا أكذب نفسي فأقول (لا) وأحس أنى في حيرة ،
فلا أستطيع أن أقول (نعم) وما خير التكرار إذا كانت النهاية واحدة ؟
وإذا تسنت العودة من جديد واستئناف الحياة في الدنيا مرة ثانية ، فهل
يكون ذلك بهذه النفس التي ألفتها ؟ وأرى الجواب كلا على التحقيق ،
فأزهو في فراق النفس ، ولا أرى هذا الاستئناف للحياة ، أو ابتداءها
من جديد ، إلا ضرباً من الموت ، فكأنى سأموت ميتتين بدلاً من واحدة .

وأحيانا هذا الخاطر بالتهكم والسخرية . أركب بهما نفسي
والناس والحياة وكل ما فيها ، وتستزقي الناطقة الفنية فترة ، فأذهل ،
وأهنا ، لأن بالي خلا من التنغيص ، ولأن عاطفتي الننية جعلتني فيما أحسن
أقوى من الحياة نفسها ؛ لأنها انتزعني من اللجة ، ووقفت بي على
الشاطئ وأتاحت لي أن أتأمل صورة الحياة من ناحيتها المسلية ، وأنا
بعزل عنها فكأنني محلق فوقها ، غير خاضع لها . . ومن يدري ؟ لعلني
أدخل السرور على نفس أخرى مظلمة كنفسى ، بما أعالج من فكاهة
الحياة ؟ . ولبتس قليلا أن أستطيع ذلك وإنه ليس محلى أن أبوهم أنى أستطعت
إسعاد غيرى ولو دقائق معلودات وقد أكون وإهما ولكنه وهم جميل ، بل
جليل ، وأنه الذى يغربني بتلمس الجوانب الفكاهية فى الحياة ، ولا أنكر
أن هذا يسرى على نفسى أيضاً ، ولكن ما ينفعنى ويشفينى ساعة لا يخلو
من نفع لغيرى . وما أظن بي إلا أنى أصبعت ، كذلك الذى شفاه دواء
لا يعرفه الأطباء ؛ فهو يعد منه ملء زجاجات يهبها للشاكين المتوجعين لوجه
الله وشكراً لله .

وقلت لنفسي أيضاً : « يا هذا ، لقد جاوزت الخمسين ، فأنت الآن
فى المنحدر ، كنت على جانب آخر من جهل الحياة ، تصعد وتتوقل ،
ويصرفك ما فى الصعود من مشقات وما يتماضاك من جهد ، وما تأخذه
عينك من صور ومناظر - عن التفكير فى الذروة وما بعدها ، فالآن
أشرفت على الجانب الآخر ، ولا مفر لك من النزول . وعبت باطل ليس
يجدى أن تخادع نفسك ، وتوهمها خلاف ذلك . وقد يتسرك أن تقف
هنا قليلا ، وتتلبث هناك لحظة ، ولكن الانحدار مهما طال الوقوف ،
لا مهرب منه ثم إنك وأنت لا تستطيع أن تجعل عينك إلى فوق ، فهى
أبدأ - أو فى الأغلب الأعم - إلى تحت . . إلى المصير المحتوم . . وهو
محتوم . . محتوم ، ما فى هذا أدنى شك فما قولك فى رياضة النفس
عليه ؟؟ تروض نفسك على الموت . . على الاطمئنان إليه . . على

السكون إلى ما يهولك منه ، والرضى به ؟؟ واعلم أن هذا لا ينبغي حرصك على الحياة وضمك بها ، وكل ما فيه أنه يعدك لما بعدها ، فأنت كالذي يذهب إلى مدرسة ليبيء نفسه لغده المأمول ، فهذا غدك الذي لا ريب فيه ، فن أصالة الرأي أن تنهياً له . وسينفعك هذا ، ومواجهة الحقائق أولى وأرد على المرء من تجاهلها والمكابرة فيها . . .

وراقني هذا ، فصيح عزمي على رياضة النفس على السكون إلى الموت .

- ١٧ -

سألت نفسي : « لو أمكن أن أبدأ حياتي من البداية ، مرة أخرى ، فهل تراني أسير فيها كما سرت ؟ »

ونخطر لي ، وأنا أدبر هذا السؤال في نفسي أن الأولى أن أسأل : هل يسرنى أو أنا أشتهى ، أو أتمنى أن يرتد عقربا الساعة ، وأن أكرر راجعاً إلى تلك البداية ؟

ولا أدعى أنني كرهت هذا ، ونفرت منه ، ولكني أقول . إنى ترددت وصحيح أنها كرة - لو أتاحت - يكبر بها الأهل في طول البقاء في هذه الدنيا ، والتلبث على الأرض ، ولكن المعول في الحياة ليس على الطول والعبرة ليست بالمدة ، وعدد السنين ، بل بالامتلاء والسعة ، ولولا شهادة الميلاد لما صدقت أنى تجاوزت الخمسين ، فإنى - كما قلت قديماً أيام كنت مغرى بالنظم -

أحس كأن الدهر عمرى ، وأنى أخو مغرق الأرضين بالفيضان
ويضحكنى الآن أنى قلت هذا ، فإ أعرف أننى المزعوم هذا من عسى أن يكون ؟ وقد كنت أعنى نوحاً ، ولكن نوحاً لم يغرق أرضاً ، ولم يفجر ماء ، وكل ما كان منه أنه صنع فلكا حمل فيه من كل شيء زوجين حتى أفلعت السماء ، وبلعت الأرض ماءها ، فليته ما فعل ؟ وهذا البيت مثال للتأليف السخيف الذى لا دقة فيه ولا إحكام . وبعد أن يقول المرء أن الدهر كله ، عمره ، لا يقبل منه هذا القياس المحدود ، بأن يكون أخا نوح أو حتى أخا آدم ، فإن مسافة هذا الزمن مهما طال لا تعدو أن تكون جزءاً من الدهر . وقد كنت في هذا البيت شبيهاً بالعامية أو الأطفال

حين يقيسون ما لاحد له إلى ماله حدود قرية . وللعامه عذر من أنهم محدودون ، وأن فجاج الفكر والخيال والشعور مسودة عليهم ، وليس كذلك الأديب الذى يزعم أنه واسع ، وأنه عالم صغير « يسع السبعة الأقاليم طراً » كما يقول ابن الرومى فى بيت يهجو به ابن بوران ، أو أمه ، ويقول بعد :

كضمير الفؤاد يلهم الدنيا وتحويه دفئا حيزوم

والذى يزعم نفسه قادراً على أن يطوى العالم كله فى ضميره ، وأن فؤاده يتسع للدنيا لا يجوز له أن يكون قاصراً محدود الخيال ، ضعيف التصور كالطفل والجاهل العامى النفس

وكان بعض الإخوان قد أشار على أن أعيد طبع ديوانى بعد أن أضيف إليه ما لم ينشر ، فقلت له لى لا أرضى الآن عما قلت من الشعر فى صدر حياتى - وأنه يحتاج إلى مراجعة طويلة متعبة ، ليصبح فى رأى صالحاً للنشر ، ولا صبر لى على هذا ، ولا وقت له عندى ، ومن الخطأ أن أنشر مالا أستعيد ، فقال إن رأيك فيه ليس من الضرورى أن يكون رأى الناس مثله ، وأن مالا يعجبك قد يعجب غيرك ، وأن ما يروقك قد لا يروق سواك .

فقلت هذا صحيح ، ولكنه شعرى ، ونشرى له معناه رضائى عنه وارتياحى إليه ، وغير مقبول أن أشتم الناس بأن أقول لم يخلوا هذا الشعر ، فهو حسبكم وإن كان ليس حسبى ، ثم إن رأى أنا فى كلامى هو الذى يعينى ، وما قلته إلا للعبارة عما فى نفسى . .

فلذا كنت أرانى لم أجده العبارة ولم أوفق فى التصوير ، وأنى تشابه الأمر على ، بلهلى ، وخلطت بين العرض والجوهر ، وركبى الغلط حتى فيما توهمته حقيقة إحساسى وخوالجى ، فكيف أستطيع أن أعرض هذا الخلط والغلط والعجز على الناس ؟ ؟

وكما لا أحب أن أنشر ما قلت من الشعر بعد أن أدركت مافيه من قصور ، كذلك لا أحب أن أبدأ حياتى - كرة أخرى - من البداية ، وأكبر الظن أن ذكرى الشباب أحلى من حقيقته ، وأعذب . وإنى لأغوص فى أعماق نفسى الآن ، فأجد أنى فى شبابى لم أسعد به كما أسعد بذكراه ، وأنى لم أجعل بالى فى عهده إلى الحلاوة التى أتذوقها الآن من عرض أيامه على خاطرى ، ونشر المطوى من زمانه . وأحسب أن الذى يكسب ذكرى الشباب هذه الحلاوة ويرقق القلب له ويعتلفه عليه ، ويعصره أيضاً ، هو أن الإنسان ينتقى منه ويتخب ، ويغربل وينخل ، ويبرز ما يحب ، ويحجب ما يكره ويقول هذا هو الشباب !! كلا ، ليس هذا بالشباب ، وما كانه قط ، ولن يكونه ، وإنما هو الحميد منه ، مستخلصاً ، ومصفى ، ومعروضاً على نفوس تحس ديب الفناء ، وتشعر بأنها مولىة عن الدنيا ، وكل ما يذهب ولا يرجع يلتفت إليه القلب ، وما ينفرد الشباب بما يدعو إلى الصبوة إليه والرغبة فى استعادته ، فما يخلو عهد من عهود العمر من بواعث الرضى ، وللكهولة لذاتها ومتعها ، كما للشباب ، بل لعل متع الحياة ولذات العيش فى الكهولة أقوى وأعمق ، فإن للتجربة مزيته والمعرفة فضلها ، والمرء يغالط نفسه حين يقول إن ما مر به كان أطيب مما هو فيه ، فما كان كذلك ، ولكن الذى فى الماء لا يستطيع أن ينعم برأى البحر ومناظر الساجين فيه ، كما ينعم بذلك الواقف على الشاطئ ، والماضى أوقع فى النفس لأن ذكراه تثير السرور بما كان فيه من حسن ، والأسف على انقضائه ، وتمنى عودته ، ولكن الحاضر يشغل بمعاناته عن التفكير فيه والإحساس به من نواحيه جميعاً . كالساحب فى الماء يشغل بجهد السباحة عما حوله من المناظر . وإذا وسع الإنسان أن يكون فى اللحظة الحاضرة وأن ينأى عنها ويلاحظها من بعيد ، ويتأملها ويوقظ لها نفسه وحسه وعقله ، كما يفعل حين يتدبر الماضى - إذا وسع المرء أن يفعل هذا ، فإنه يستطيع أن يضيف إلى لذة الحاضر المتع المستفادة من رجع البصر أو التذكر .

والأمر يحتاج إلى رياضة ، وقد استطعت أن أروض نفسي على هذا ،
 فأنا حين أكون على حال ما . لا أعجز عن انتزاع نفسي منه . والوقوف
 بمعزل عنه بحيث يتسنى لي أن أراقب ما يجري - كأنه يقع لسواي - وأن
 أدير فيه خاطري فأكون في الحاضر وكأنه مضي وذفر بالمتعة المحسوسة والمتعة
 المتخيلة وضرب مثلاً فأقول هبني أعانق فتاة وأقبلها ، فأنا حين أفعل ذلك
 أشعر بمتعة القبلة والمدة الضمة ، ولكني أزيد على ذلك أني أستطيع أن أسبق
 هذه اللحظة بسنة أو سنتين . وأنصور نفسي جالساً أتذكر حلاوة القبلة التي
 فزت بها من تلك الفتاة ويكون تصويري هذا في أثناء التقبيل . فهما قبلتان -
 واحدة أحسها بقمي ويرف لها قلبي وأخرى يجسدها لي خيالي كما ستكون
 بذكرها بعد انقضاء عام أو عامين وهكذا في غير ذلك .

لهذا لا أرى مزية للعودة إلى الشباب .

— — —

- ١٨ -

سألتني « بعضهم » هل تعتزل الناس ، أو تروم أن تعتزلهم ، لأنك مللت الحياة ، وزهدت في العيش ؟ أو أنت تفعل ذلك لأنك لا تأنس من نفسك القدرة على خوض الغمار ، ومصارعة التيار ، أي لفتور عراك وضعف أدركك .

وليست هذه ألفاظ السائل ، فقد نسيت الموضع الذي كنت أدخر فيه رسالته إلى أوان الرد عليها ، والنسيان آفقي التي تكاد تذهب بلي فيني أنسى كل شيء إلا أنني أكلت ، وما أذكر الشيع إلا بما أعانيه من كربة الثقال ، وأحسب أنه - وأعني النسيان ، لا الشيع - هو الذي حماني أن أحب وأعشق ، وكيف بالله يكون حب من يسمى عاشقاً ويصبح سالياً ؟ ؟

أي والله ، وإن الحسن لفتنة ، وإن القلب ليصبو !
ولكنني أنسى أنني صبوت . وتطير من رأسى الأسماء والأحاديث ، كما تطير العصافير عن أعشاشها .

وقد اتفق لي أن خرجت يوماً بالسيارة وحدي إلى آخر مصر الجديدة ، فأوصدت أبواب السيارة وذهبت أتمشي في الحدائق الممتدة إلى حدود الصحراء ، وكنت مطرقاً أنظر إلى الأرض وأنا أخطو ، وكان بالي إلى الفرق بين وقع قلبي - قدم رجلي السليمة ، وقسدم رجلي المهيمضة - وإلى مسافة الزمن التي يستغرقها الخطو بكل منها ، وأيهما أثقل وأبطأ فيما أحس وأرى :

وكان الداعي إلى هذا أنه خطر لي أنى مخطيء في اجتناب الرقص ،
وأنه عسى أن تسعنى ساقى المهيضة ولا تعباً بالحركة الخفيفة السريعة المطلوبة
فلا يبقى موجب للصبر على هذا الحرمان ومسوخ لتوطين النفس عليه ،
وأنا أحب الرقص ، ولكنى لا أحب أن أكون حجر طاحون ، وأخشى
أن تخذلنى ساقى ، فأتلکأ وأبطيء ، أو درس قدم الى أراقصها وأدور
بها ، وأخجل أن أجرب قبل أن اتبين واستوثق ، وإني لهكذا وإذا بي
أصدم بفتاة داخله من بعض أبواب الحديقة ، فاتفقت الوقوع بإسناد كفى
إلى كنفها ، واتفقت هي براحتها على صدرى وأفقنا فشرعت اعتذر ،
فقاطعتنى وقالت « أهو أنت ؟ »

فابتسمت وقلت « ليس عنلى أدنى شك فى انى أنا ، فهل يكفيك
هذا الجواب ؟ إنه على كل حال من نوع السؤال »

قالت « إنما أعنى أن هذه مصادفة عجيبة . أين كنت كل هذا الزمن ؟ »
فتأملت ، وأطلت التحديق فى وجهها الصباح ، ولكن رأسى لم يخلج
فيه شىء . فهزرت رأسى وقلت « كل هذا الزمن ؟ هل ؟ هل أقص عليك
تاريخ حياتى من البداية ؟ »
قالت « ألا تذكر ؟ »

قلت « هذه هى المسألة — كما يقول هملى ، فهل سمعت به ؟ »
قالت « كيف تنسى ؟ كيف يمكن أن تنسى ؟ »

قلت « اسمعى » وجريتها من ذراعها إلى مقعد « هذا موضوع يحتاج
إلى تقص طويل ، فقولى لى : هل أنا مدين لك ؟ هل اقترضت منك مالا ،
أو استعرت شيئاً ؟ »

فضحككت وقالت « لا مال لى أقرض منه ، وليس عنلى ما يستحق

أن يعار »

قلت « هذا حسن . فإني الساعة أدنى ما أكون إلى الإفلاس :
سؤال آخر . . »

فقاطعتني وقالت « لاتسأل . . سأذكرك بكل شيء »

قلت « خير إن شاء الله ، هاتي ما عندك »

قالت « أتذكر السويس ؟ »

قلت « أعرف السويس ، مصيف جميل ، ومشى أجمل ، فهل تلاقينا
هناك على ساحل البحر ، أو في الكازينو ، أو على الباخرة التي ركبنا
إلى الحجاز أو . . . »

قالت - وهي تضحك - انتظر لا ، لم نتقابل في السويس ، بل في
طريق السويس ، عند الكيلو الخمسين ، وكنا عائدتين إلى مصر : . »

فقاطعتها « كنا ؟ من تعنين ؟ »

قالت « ألا تنتظر ؟ أخي وصديقتان وصاحب لهما ، وأنا ، فانكسر
غطاء المحرك فوقفنا ننتظر نجده ، وكاد يدخل الليل ، وكدنا نياس ،
فقد كانت السيارات التي تمر بنا ، لا تقف ، وهي صغيرة لا تتسع لنا ،
ولا تقوى على جونا وإذا أنت مقبل فاعترضت طريقك وأشرت إليك
فوقفت ، وسألتنا عما نريد ، فأخبرناك ، فاقترحت أن نحملنا جميعاً في
سيارتك ، ولكننا اعترضنا ، وقلنا إننا لا نستطيع أن نترك سيارتنا واقترحنا
عليك أن نربط السيارتين فتجرنا ، ففعلت وركبت أنا معك فقلت لي
« متخرب سيارتي ، وسينهكها هذا العبء ، ولكنني حسبي عوضاً أن مت
عيون كفت عن البكاء وثلاث وجوه عاد إليها الإشراق . . »

وقد عرفناك وعرفتنا ، وكتبنا أسماءنا كلها في رقعة ، ولقيتك
أنا وأخي بعد ذلك مرتين ، دعوتنا في أولهما إلى السفينة ، وفي المرة

الثانية قضينا أكثر من ساعتين في الأمريكين ، وقد أخبرتك في ذلك اليوم أنى مسافرة إلى الأسكندرية لقضاء شهر فيها ، وأعطيتك عنوانى فوعدت أن تزورنى ، وأن تكتب لى ، قبل الحضور ، ولكنك لم تفعل لا هذا ولا ذاك .

قلت « الحمد لله »

فقطبت وقالت « إيه ؟ ماذا تعنى ؟ »

قلت « اسمعى . إن راسى هذا غريال واسع الخروق ، كما يعرف كل من يعرفنى ، وقد كنت أخشى ، وأنت تقصين على الحكاية ، أن أكون قد قلت أو فعلت شيئاً .. الحمد لله على كل حال ، فقد اقتصر الأمر على هذا القدر . »

« قالت ، ولكن لماذا لا تنتظر ؟ لقد وعدتني أيضاً .. »

فقاطعتها قائلاً « هل تريدان أن تضحكى على ذفى ؟ لأنك عرفت أنى سريع النسيان ، تخترعين وعوداً و .. »
قالت « ولماذا اخترع ؟ »

فتناولت ذراعها وسألها « سأوجه إليك سؤالاً قد يبدو لك مخرجاً أو ثقيلاً ولكن عذرى هو هذا النسيان ، هل قلت لك أنك جميلة ؟ » .
قالت « نعم .. قلت : « إن عيني زرقاوان كالبحر ، وعميقتان مثله . »
قلت « هلنا صحيح » ففرحت وصاحت « هل تذكرت ؟ » قلت « كلا »
إنما أعنى أن عينيك هكذا تماماً وأن هذا الوصف هو الحقيقة على كل حال — وهل .. هل .. ؟ »

قالت « نعم »

قلت « ماذا تعنين بنعم » بعبوس .

قالت : « بانتظار سؤالك »

فتشهدت وسألها « هل بستك؟؟ معذرة ! »
 قالت « أوه... هذا... نعم ثلاث مرات... مرة في الطريق
 وأنا معك في السيارة ومرة... »
 قلت « كفى... كفى... إني آسف... ولم يبق إلا أن أسأل هل
 كانت القبلة حلوة!؟ أظن أنني سأجن... »
 فقالت، وهي تضحك « إنك مدهش... ولكن هل صحيح أنك تنسى
 إلى هذا الحد؟ أم تراك تتكلف لتعابثني؟ »

قلت « لا والله، ما أذكر أنني رأيتك في حياتي... »

وغريب أن أنسى الأصل وأذكر الهوامش!

فهذه حادثة تريك كيف يكون من المستحيل على أن أعشق، لأنني
 أنسى كل حب، بل كل عاطفة، لا يزيد عمرها على أربع وعشرين
 ساعة، على الأكثر، ثم تنطوي.

وأعود إلى السؤال الذي بدأت به هذا الفصل، فأقول إنني لم أسأم الحياة
 ولم أزهدها فيها، ولا فترت عنها، بل أنا أطلب لها، وأقوى رغبة فيها
 مما كنت في أي عهد مضى، ولست آنس من نفسي عجزاً عن مسابقة
 الدنيا، أو الناس، فإن الأمر على التقيض، وأحسب أن الرغبة
 في الحياة تقوى مع ارتفاع السن وقلما يلفت الشاب إلى الحياة وطولها
 أو قصرها، أو يفكر في أنها إلى زوال، لأن ما يحسه من فيض الحيوية
 لا يجعل له بالاً إلى شيء من ذلك، ولأنه يكون مشغولاً بانفاق هذه
 الحيوية الزاخرة عن كل أمر أو حال آخر، فهمه أن يريح نفسه من
 ثقل الضغط، وأن يفتح « البوابات » كلها لينحدر منها ويخرج بما يجاوز
 طاقته، ويزيد على قدرته على احتمال ضغطه ثم يتقضى الشباب فيسلس
 التلطف وتخفف وطأته ويزداد شبح المعين على الأيام، فيتسنى للمرء أن يفكر

بعقله وينظر بقلبه وأن يدبر عينه في الماضي ، والحاضر ، وأن يمد بصره في المستقبل ويرى أنه يدلف إلى النهاية ، فيفرق ويشفق وقد يجزع .

وتحدثه نفسه أن النهاية قد تكون أدنى إليه مما يرجو فيشهى أن يفوز فيما بقي له من العمر . باضعاف أضعف ما فاز به فيما مضى وانقضى ويطلب أن ينعم أعظم نعم في أوجز وقت لأنه من يدري ؟ قد لا يطول العمر . وقد يتخونه الموت . وهبه طال فقد لا تبقى الصحة . وما خير حياة بلا صحة ولا قدرة على العمل والاستمتاع ؟

فهو لهذا يقبل على الحياة ، لم يكن يفعل في شبابه ، لأنه كان مغترأ بالعياب الزاخر في شبابه ، ومفتونا به ، ومصروفا عن التأمل والتدبر ، أما في الكهولة فإذا يغير ؟ وماذا يتوقع ، وهو يحس النضوب يوما بعد ؟؟ ومن أجل هذا يخطيء من يتوهم أن الشباب هو وحده سن الإقبال على الحياة ؟ فما ينقطع أو يفتقر الإقبال ، ولكن المرء في صغره يركب الحياة بالجهل ، أما في الكهولة فإنه يركبها بالإرادة ، وهو في شبابه يكون محمولا على متن تيار لا يستطيع أن يقاومه أو يصدده ، وفي كهولته يكون كراكب السفينة المطاوعة يمحربها إلى حيث يرغب ، وقد صارت في عونه تجربته ، وسكون التيار ، كذلك يخطيء من يحسب الكهولة أضال استمتعا بالحياة ، فإنها أدري بالمتعة ، وأحسن بها ، وافطن لها ، وأعرف بوجوهها ، وأخبر بالوسيلة إليها .

كلا ، لست أنشد الاعتزال لشيء من هذا الذي سأل عنه بعضهم ، بل لأسباب أخرى أعمق ، أحاول أن أجلوها ، وأراني كلما عاجلت ذلك أذهل عنها ، أو استطرده ، أو أغرق خطر أنها في بحر من اللكريات والتأملات .

- ١٩ -

قلت إن من الخطأ أن يتصور أحد أن الشباب أشد إقبالا على الحياة ، وطلباً لها ورغبة فيها ، أو أن الكهل أقل تشبثاً بالحياة أو أكثر فضيلة أو أثر لها وللعفة والزهادة في سيرته . وقد أثار هذا القول اعتراض بعض الإخوان ، فأنشأوا يجادلوني فيه ، فكان مما قلته لهم إنكم لا تواجهون الحقائق بل تهربون منها ، وتشيحون بوجوهكم عنها ، لأنكم ترون هذا أكرم لكم وأبعث على توقيركم ، أو أنتم تجهلون نفوسكم ، أو تغالطونها أو لا أدري ماذا غير هذا وقد كنت شاباً كما كنتم ، ولعل الفرق بيني وبينكم أني كنت ، وما زلت ، مغرى بإدارة عيني في نفسي ، والغوص في بلحها على ما عسى أن يكون فيها من طيب وخيث ، وأنى لا أحب أن أسمى الأشياء أحسن أسمائها بل أسماءها الحقيقية ، وأنى قد أغالط الناس ، وأخدعهم ولكني أضلقت نفسي . وليس أحلى عندي وأمتع ولا أوقع وأروع ، من أن أتناول نفسي ، كلما تيسرت لي الخلوة بها ، وأحطها على كرمي أمامي ، وأتدبرها ، وأجمل فيها عيني ، وأفحصها وأجسمها ، وأسبر أغوارها ، وامتنحن نزعاتها وبواعثها ، واتمس المصادر الأولى لأهوائها في أعماقها ، وإصلاحها بحقيقة ما أرى وأعتقد ، بلا تلثم ، أو مصانعة ، أو مغالطة ، وعسى أن يكون هذا مدعاة للإسراف والشطط ولعله يحمل على التعجنى ، ولكنه خير عندي من المغالطة على كل حال .

والقول بأن الإنسان يركب الحياة بشبابه غلط ، والصواب أنها هي التي تركبه في شبابه تركض به من غير أن يكون له رأى أو إرادة ، ومن غير أن تدع له فرصة للراحة والاستمتاع ، وما يركب الحياة بالرأى والإرادة

إلا الكهل على خلاف المظنون والشائع . أو هذا ، على الأقل ، مابلوته من نفسي ، وعرفته وأيقنت أنه الصحيح .

كنت شاباً . فكيف كانت حياتي ؟ وكيف كان الشعور بها ؟ أرد عيني إلى هذا الماضي وأحلق ، واستشف ، واستعجل ، واستوضح .

ثم أهز رأسي ولا يسعني إلا أن أقول لا أدري ! كل ما أدريه أني كنت محبولا على متن تيار قوي ، وكنت أقرأ ، وأعمل ، وأجد وألعب ، وأشتهى وأطلب أو أقصر ولكن بغير فهم صحيح ، أو إدراك تام لما أنا فيه ، أو لبواعثه أو لمصائر الأمور ، كانت الكتب تعديني وتسحرنني ، فانظر إلى الدنيا بعين أصحابها لا بعيني ، وأحسها بقلوبهم لا بقلبي ، وأنصوّر حياتي وأقيسها على ما يروقني من صور الحياة في هذه الكتب ، وانتحل آمال أصحابها وخاوفهم ، وهماهم وعزماهم ، ومثلهم العليا ، وصور الكمال عندهم ، وأوحى ذلك كله إلى نفسي ، ثم ازعمني ندهم وقرعهم فأزهي وأتكبر ، وأغتر ، لأنني أرى نفسي كما رسمها خيالي الذي استمد من هذه الكتب لا كما هي في الواقع ، وكنت أفعل الشيء أو أتركه بوحى هذه الكتب .

واضرب مثلاً - عشقت مراراً ، وقال في صديقي الأستاذ العقاد قصيدة بعث بها إليّ ، في ذلك الزمان .

أنت في مصر حائم التمهيد بين حب عفي ، وحب جديد

وأذكر أنه بعث إليّ يومئذ برقعة كتب فيها أسماء المعشوقات وإلى جانبها أرقامها ، وكان الرقم الأخير ١٧ وسلسل الأرقام تحتها ووضع أمامها أصفاراً لا أسماء ، إشارة إلى أن معاشقي لا تنتهي ، وأنه ينتظر أن يعرف الأسماء ليقيدها قبالة أرقامها .

وإذا قلت عشقت ، فلنما أعنى الآن أنى انتهيت ، وأنى عانيت هذا
الضرب من الجوع الذى يسميه الناس الحب ، ولكنى لم أكن أدرك
هذا يومئذ ، أو أنظر إلى حقيقة الأمر فيه ، وإنما كان ما أقرأ من الشعر
يغرينى بنشدان الحال ، ويطلقنى كالنحلة بين أزاهير الحسن ، ويدفعنى إلى
إيحاء الشعور بالحب إلى نفسى ، فأتوهم أنى محب ، وأنى عاشق ،
فأقضى الليل مسهد الجفن مؤرق النفس ، أنظم الشعر وأقول فى هذا
المحبوب أو ذاك .

وألقي المحبوب ، فماذا كنت أصنع ؟؟ لا شىء أكون معه كما أكون
مع أى واحد من خلق الله ، ولا يخطر لى حتى أن أتملى بهذا الحسن وأسعد
بنضارته ورونقه ، أكلمه كما أكلم غيره ، وأجد أو أمزح ، على نحو ما أفعل
مع إخوانى بلا أدنى فرق وأرجع إلى بيتى ، وأقعد بين كتيبى ، فأروح
أنصوّر هذه الجلسة العادية على نحو آخر ، وأخلع عليها من الخيال حللا
ذات ألوان شتى ، وأستبعد ما دار من الحديث وما كان من إشارات
أو نظرات لم أعبأ بها فى حينها ، وأحملها المعانى التى أريدها ، فأسر بهدا ،
وأتألم لذلك ، وأرى فى هذه الكلمة والإشارة أو النظرة ، معنى الرضى أو
التشجيع ، وفى تلك معنى التدلل أو الملل ، أو القصد إلى الإيلام ولا أزال
هكذا حتى تجتمع مادة كافية من ضروب الإحساسات لنظم قصيد !
لا ، لم أكن أعيش ، أو أشعر بالحياة ، وإنما كنت أنظم شعراً ،
وكننت وأنا أنظمه أتمثل الإحساس الذى أريد العبارة عنه ، والعاطفة التى
أتحيل الصدور عنها ، ووحى لنفسى هذا كله ، وانتهى بأن أعتقد بأن هذا
هو الذى شعرت به حقيقة لا توهمها ، وأنه هو الذى خامر نفسى لا الذى
أنشأته أنا لها بقوة الإيحاء .

ولا يخلو من فائدة فى بيان هذه الحقيقة ، وأن أقول أن قرض
الشعر هو الذى كان المقصود والذى اتجهت إليه الرغبة وتعلقت به الإرادة
وإن ما كان من حب متوهم وإنما كان ثمرة هذه الرغبة فى قرض الشعر ،

أى أن قول الشعر كان يبعث على التماس المادة له ، كما يريد النجار أن يصنع كرسيًا فيطلب الخشب وما إليه ، والدليل على أن هذا كله كان بفعل الإيحاء ، أن من أعرف الآن من نفسي أنى صغوت بقلبي إليها لم تكن قط موضوعاً لشعري ، فإذا كنت قد نقلت قلبي مرات وطرقت عن زهرة إلى زهرة في بستان الحسن ، فذاك لأن العاطفه لم تنشأ نشوءاً طبيعياً ، بل بإيحاءها إلى النفس .

وفي وسع القارئ أن يقيس على هذا . فأننا لم أكن في شبابي أتلقى وقع الحياة مباشرة ، بل عن طريق الكتب ، وكنت لهذا كالذي نومه غيره تنويعاً مغنطيسياً ، فراه ، وشعوره ، وعاطفته ، وهواه ، وأمله وخوفه ، وحبه وبغضه ، هو ما يحدثه في نفسه إيحاء منومه .

وقد شببت عن هذا الطوق . وما زال ولوعى بالكتب كما كان ، ولكنه لم يبق لها شيء من ذلك السحر القديم ، فقد استطعت بفضل معاناتي للحياة أن أقي نفسي وأجنبها تلك الفتنة ، فأننا أنظر في الكتب ، وفي الحياة ، بعيني ، لا بعين الكاتب أو الشاعر ، وأحس بقلبي لا بقلب سواي وأتلقى وقع الحياة منها لا من إيحاء الكتب ، وأطلب الشيء لأنى أريده وأراه جديراً بالطلب ، وأقيس قدرتي إلى رغبتى ، وأوازن جهد السعى وثمرته المرجوة وأقدم أو أحجم بعد القياس المضبوط ، والموازنة الدقيقة .

وأحاول أن لا أغالى بقيمة شيء ، أو أن أبخسه حقه ، ولا يستغنى هوى ، أو يغرنى حال ، أو يخرجنى عن طورى أمر ، أو يفقدنى اتزانى فرح أو حزن ، ورضى أو غضب ، ولا تجمع بى شهوة ، ولا تركض بى صبوة ، لأنى أصبحت أعرف القيم الحقيقية للأشياء ، ولا أعلو بها مكانها . ولا أخلط بها الأوهام ، ولأنى أسير فى الحياة بالإرادة الصارمة لا طوع الجواذب ، فإذا سألتنى لماذا أفعل الشيء ، فإنى أعرف الجواب الصحيح ، إذ كنت لم أفعله إلا بعد الروية والحساب والوزن ، وكذلك ما أترك أعرف علة تركه .

ويمكن أن أقول - ويمكن أن يصدق القارىء - إنى كنت فى شبابه أواقع الحياة موقعة الهواء ، أما الآن ، فإنى أواقعها موقعة المحترف ، وقد صارت الحياة عندى حرفة ، تعلمتها ، وحذفت منها الجانب الذى طلبته ورأيت أوفق لى ، والفرق بين الهاوى والمحترف لا يحتاج إلى بيان .

وكل عواطفى وأهواء نفسى ، طوع إرادتى ، وإراداتى لا تخضع إلا لتقديرى لما ينبغى - ويحق لى فى رأى - أن أفوز به من الحياة . والعمد فى سيرتى محقق ، إلى الحد الذى يتيسر للدخول الخاضع لسنن الخلق . وهذا العمد من بواعث السعادة لنفسى . لأنه يكسبني حظاً من الاستقلال ويجعل لى فيما أشعر نصيباً من الحرية ، فى الحياة ، ولا شك أنه يجعل شعورى بالتبعات أقوى وأثقل ، ولكن هذا هو الأكرم ، إذ أى قيمة لإنسان لا يشعر أنه مسئول عما يصنع ؟

- ٢٠ -

كانت حياة الشباب ، حياة كبت ، وحرمان وحيرة ولم أكن أعرف
 لي يومئذ معاداً غير الإكباب على القراءة والإكباب على قرص الشعر وكنت
 أقول - ولا يخفى على عبث ما أحاول -

وما نظمي من الأشعار إلا علالة
 لو أن سلكوا بالقريض يكون !

* * *

وكنت أقول لمن يذكرون شعري :

« فلا تنفوسوا شعرا ، على ، مفوفا
 له ، لو علمتم ، جانب متخوف
 كما نظمت هذه الرياح غماثما
 لها من غروب الشمس وشي مطرف
 يهددها مما يضم ، ممزق ..
 ومما يوشىها ، مذيب ومتلف
 لنا الله من قوم تذيب نفوسنا
 ويخني سوانا ما نشور ونقطف
 ويصدر عنا الناس ربا قلوبهم
 ونحن عطاش ، بينهم نتاهف
 نلوق شقاء العيش دون نعيمه
 على أننا بالعيش أدرى وأعرف

* * *

وأحب أن اتعزى بالوهم فأردف ذلك بقولى :
 « ولكنه ما أخطأتنا لذاذة
 إذا بلغ السؤل القريض المثقف
 إذا هو سرى عن لحيث مفجع
 وأنس قلباً موحشاً يتشوف
 فما تجفل الدنيا إذا جل ظلمها.
 ونحن من الأيام والعيش ننصف »
 ولم يكن زعمى أنى أحد الدين ينصفون نفوس الناس من الأيام
 وظلمها ، بعزاء صادق أو دائم ، فكانت وطأة الحرمان والكبت تثقل على
 كاهل صبرى فأصبح :

« لبست رداء العيش عشرين حجة
 وثنتين ، ياشوقى إلى خلع ذا البرد !
 عزوفا عن الدنيا ، ومن لم يجد بها
 مراداً لآمال تعلل بالزهد . »

فيوم كان فيض الحياة زاخرا ، كنت أقول ياليتنى ما كنت ، ولم
 يكن هذا طبيعيا ، ولكنه كان ثمرة الكبت ، وجنى الحرمان ، وقطاف
 الحيرة ، والآن ، وأنا أدلف إلى الخمسين ، لشد ما أتمنى أن يثقل الزمان
 رجله ، ليطول التلبث ، تقضى النفس وطرها من التزود قبل أن يستأنف
 الركب مسيره إلى « فجر لاشيء » كما يقول الخيام فى إحدى رباعياته ؟
 وقد صار ما كان يشق على أن أراه ، باعثا على التسلية ومجلبة للسرور ،
 ولم يصدق ظنى حين توهمت فى أيام الشباب الكاذب ، أنى سأقضى حياتى
 ثائر النفس ، هائجا ، أنه ليس لى عن ذلك معدى أو مهرب فقد قلت :

« سكنت ، فما أدرى الفتى كيف يغتدى
 تجدد به الأشجان طورا وتلعب »

كما قلت على لسان غبرى .

بل لم أسكن ، ولكنى نظرت إلى الحياة من ناحية أخرى ، فقد
تغيرت الدنيا ، واختلفت أحوال الحياة ، فراجعت نفسى . ورضتها
على غير ما ألفت وانعطفت بها إلى سبل أخرى . فقد عرفت أن شعورى
القديم بالمقت للحياة كان غير صادق ، وأنه لم يكن سوى مظهر لحالة
عارضة أعانيها ، وأن حب الحياة والتعلق بها أعمق من ذلك لكن حب الحياة
كان يصطدم أحيانا بالجزع من الموت . فكان يرجئى هذا ويخرجنى عن
طورى . . ويعصف بأتزانى فأرانى أثور وأحاول فى مثل هذه الحالة الوقتية
أن أنغص على الناس كأن لهم ذنباً أو كأنهم ليسوا مثلى سواء بسواء ، فأروح
أقلد : « هينى » الشاعر الألمانى ، وأكتب وصية ليس أكشف منها عن جنون
الثورة ، فأقول مثلاً :

« سترخى على هذى الحياة الستائر
وتطفأ أنوار ، ويقفر سامر
فهل راق هذا الناس قصة عيشتى ؟
وماذا يبالى من طوته المقابر ؟
تركت لهم من قبل موئى وصية
نظير التي وصت بها لى ، المقادر
وهبت لأعدائى ، إذا كان لى عدى ،
هموى وما منه ، أنا الدهر ، ثائر
وأوصيت للمحبوب بالسهد والضنى
وبالدمع لا يراقا ، ولا هو هامر ،
وبالجلدى فى وجهه ليزينه
وبالعرج المشنوء ، والله قادر

وبالضعف والأملاق والبأس والجوى
وبالقسم حتى تنقيه النواظر ،
وللشيب بالأوجاع فى كل مفصل
وبالشكل فى الأبناء والجد عائر
وكل سقام قد تركت لذى الصبا
وما كنت منه فى الحياة أحاذر
وللناس ألوان الشقاء ، ولبنى ،
إذا مت ، لا آسى على من يخامر
ولم يكن لى فى ذلك الحين بنون ومن أجل هذا فأننى أن أوصي لهذه
الطبقة بشيء من تلك الثروة البغيضة !
وكان عقلى يثوب ، فأطوى هذا الهراء ، ولا أنشره فيما كنت أنشر
من شعرى . . على أنى كنت هادئا ساكنا ، لما عثرت - وأنا أحاول .
عبثاً أن أتعلم الألمانية وحدى - على بيتين فيهما غير قليل من خبث
المكايدة ففرحت بهما وترجمتهما فيما يلى - والمفروض أنهما يكتبان على
قبر صاحبهما .
أيها الزائر قبرى
اتل ما خط أمامك
ههنا ، فاعلم ، عظامى
ليها كانت عظامك !
وترجمتى هذين البيتين ، وأنا هادىء ، دليل على أن الثورة كامنة
فى النفس وإن كانت لا تبدو فى العادة .

ثم صرت لا يعزيني علمي أن غيري لا محالة ذاهب ، إلى حيث أذهب
وإن المآل واحد ، ولا يقنعني إلا أن أصور لنفسي فناء العالم كله ، بل العوالم
أجمع ، حتى هذا لم يكن فيه مقنع ، فكنت أشتي أن أكون آخر من في
الدنيا لأشهد مصرعها بعيني ، وأطمئن . وربما غالطت نفسي فزعمت لما أن
هذه شهوة فنية ، ولكني لا أصدق ! كلا ، لا أصدق .

وكان مظهر هذا قصيدة تصورت فيها ثلاثة نساجين (ولا أدري لماذا
لم أجعلهم أربعة أو عشرين !) يصنعون كفنًا للعالم .

تعاقب أيديهم على النول ، دهرهم ،
ولست أراه غير أني عالم
وما بي ، إلى أن تبصر العين ، حاجة
أليس سوي ما أنت بالعين شائم ؟
هنالك ، لو تدري ، تسدى أكفهم
وتلحم ثوبا عهده متقادم
وفي مسمعى منهم - وإن كنت لا أرى
وجوههم - أصواتهم والزمازم
يحكون ثوبا ناصعا فيه تنطوي
- متى عريت - هدى الدنيا والعوالم
من البرد الخزي يبيض خيوطه
ومن بلورات القر فيه نمانم
ومن نفس الريح المديد خطوطه
ومن قطع السحب الثقال مراقم

ألا ليتنى فى الأرض آخر أهلها

فاشهد هذا النحب يقضيه عالم

وقد خلفت ورائى هذه المرحلة أيضا ، فلست ألتبس عزاء ، أو أنشد
ما أغالط به نفسى فى الحقائق . وسيان عندى اليوم أن يذهب الناس
أو لا يذهبون ، فما أحفل شيئا من هذا ، ولأنه لآثر عندى أن يبقوا لو كان
للى هذا سبيل ، على أنى لا أعنى نفسى بأمرهم ، وحسبى أمر نفسى ،
وهى فى هذه الآونة أن أروضها رياضة جديدة على سكون لا يفسده
اضطراب ، لا على الركود فإن هذا شر من الموت ؛ بل طعمه يذاق
فى الحياة ، والسكون قوة لأنه ابن الإدراك الصحيح والإرادة .

الشعب
٩٢ شارع تيمور المصيلحي بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

رقم الايداع ١٥٥٣/١٩٧١

مطبوعات
دار الشعب
تصدرت
الشعب
مؤسسة صحفية عربية
لنشاطات
الصحافة

الطبعة: ١٩٥٢ شارع قصر العيني بالتحرير ٣٧٨٠ • مكتبة دار الشعب - ت ١٩١

التوزيع: مكتبة دار الشعب

١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م

Bibliotheca Alexandrina
0395438